الباب الثاني
الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول:

أدلة وجود الله تعالى.

الفصل الثاني:

أدلة توحيد الربوبية.

الفصل الثالث:

أدلة الكمال والتنزيه.

الفصل الرابع:

أدلة توحيد العبادة.

الفصل الخامس:

دلائل النبوة.

الفصل السادس:

أدلة البعث والجزاء.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

أدلة وجود الله تعالى

المبحث الأول

الفطـــرة

المطلب الأول

إثبات وجود الله ـ تعالى ـ في القرآن بين الفطرة والنظر

لاخلاف بين السلف والخلف في أن الإقرار بوجود الله ـ تعالى ـ أصل سابق لكل أصل عقدي، وإنما الخلاف بينهم في طريق حصوله. ومذهب السلف أن معرفة الله ـ تعالى ـ فطرية ضرورية، لاتتوقف على نظر واستدلال، إلا عند فساد الفطرة بطارىء ما، فعندها تكون نظرية في حق من فسدت فطرته، لكن تُسلك في هذا النظر الطرقُ الشرعية دون البدعية، على نحو ما سيأتي إن شاء الله ـ تعالى ـ[1].

ومراد السلف بفطرية المعرفة بالخالق إنما هو المعرفة الإجمالية، أما التفصيلية فلا سبيل إليها سوى الوحي[2].

وخالفهم الخلف في هذا الأصل، فقالوا: إن معرفة الخالق نظرية. وأوجبوا بذلك النظر على عامة المكلفين، ورتبوا على ترك ذلك التكفير أو التفسيق على نحو ما سبق ذكره[3]. وهذا النظر الذي أوجبه الخلف على كل مكلف، وجعلوا معرفة الخالق مترتبة عليه: إنما هو نظر في

---

(١) انظر ص: ٢٠٩ ومابعدها.

(٢) انظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية: ١/٢٤٨.

(٣) راجع ص: ١٨١.

أدلة مبتدعة، ليست مأخوذة من الكتاب والسنة، ولم يعرفها سلف الأمة.

والسلف في قولهم بفطرية معرفة الخالق لاينكرون الاستدلال على وجود الله ـ تعالى ـ بإطلاق، فهم يعلمون أكثر من غيرهم قدر ما في القرآن من ذلك، كما لم يغب عنهم مافي القرآن من ذكر منكري الخالق ـ جل وعلا ـ، كنمرود[1] وفرعون[2] والدهرية[3]، وإنما ينكرون ما يذهب إليه أهل الكلام، من جعل النظر طريقا لتحصيل أصل المعرفة بالخالق، في حق جميع الناس دون تفصيل.

ويعتبر السلف ماورد في القرآن الكريم من الأمر بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء، من أعظم أسباب زيادة الإيمان واليقين، كماهو شأن الخليل ـ عليه السلام ـ إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[4].

يقول الإمام أبو المظفر السمعاني ـ فيما نقله عنه السيوطي ـ: (وعلى أننا لاننكر النظر بقدر ماورد به الكتاب والسنّة، لينال المؤمن بذلك زيادة اليقين، وثلج الصدر، وسكون القلب. . .)[5].

كما أن النظر في هذه الآيات فيه أعظم شفاء وأحسن دواء لمن

---

(١) هو ملك زمانه نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، معاصر لنبي الله إبراهيم ـعليه السلام ـ، ادعى الربوبية وكذب بدعوة إبراهيم فأهلكه الله. انظر تاريخ الطبري: ١/ ١٧٢ ـ ١٧٤.

(٢) قيل اسمه الوليد بن مصعب بن معاوية! كان فرعون مصر في زمن نبي الله موسى ـعليه السلام ـ، وهو ممن أدعى الربوبية كما أخبر القرآن، فأهلكه الله بالغرق. انظر تاريخ الطبري: ١/ ٢٣١، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي: ٢/ ٤٩.

(٣) سبق التعريف بهذه الطائفة ص٧٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٥) صون المنطق: ص١٧١.

فسدت فطرته، فوقع في إنكار الخالق ـ جل وعلا ـ، أو غير ذلك مما يخالف الفطر السليمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (المعرفة وإن كانت ضرورية في حق أهل الفطرة السليمة، فكثير من الناس يحتاج فيها إلى النظر، والإنسان قد يستغني عنه في حال، ويحتاج إليه في حال)[1].

وهذا النظر في حال فساد الفطرة قد يكون واجبًا، إذا لم يكن صلاحها إلا به[2].

وعند تأمل الدلائل العقلية على وجود الله ـ تعالى ـ، الواردة في الكتاب والسنة، والمتمثلة في دلائل الأنفس والآفاق، نجد أنها سيقت أصلاً لتقرير قضيتين:

الأولى ـ إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة.

والثانية ـ الإيمان بالبعث والجزاء.

ونجد أن إثبات وجود الله ـ تعالى ـ يأتي ضمنا في الدلائل المسوقه لتقرير هاتين القضيتين، ولاتكاد تجد آية متضمنة لإثبات وجود الله، إلا وتكون مسوقة أصلاً إما للدلالة على توحيد العبادة، أو على البعث والجزاء.

ويمكن أن يُستثنى من هذه القاعدة آيات معدودة، جاء فيها قصد الاستدلال على الربوبية جليًا، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3]، والآيات التي فيها ذكر مناظرتي إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ، مع النمرود وفرعون[4].

وكذلك الشأن بالنسبة لدلائل توحيد الربوبية، فإن المتأمل لايكاد

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٣/ ٣٠٤.

(٢) انظر المرجع السابق: ٨/ ٣٥٨.

(٣) سورة الطور: ٣٥.

(٤) انظر سورة البقرة: ٢٥٨ وسورة الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨.

يقف على آية تقتصر على الدلالة عليه دون أن تتضمن الدلالة على توحيد العبادة، ولايمكن أن يُعد هذا إهمالاً أو قصورًا في الاستدلال على وجود الله ـ تعالى ـ، وذلك للأمور التالية:

أولاً ـ أن المستند الأكبر المعول عليه في هذه القضية هو المعرفة الفطرية، فكل إنسان يعرف من نفسه ضرورة أنه مخلوق مدبر، وإنما وقع الكفر وإنكار الصانع من بعض الناس لفساد فطرهم، إما باجتيال الشياطين، أو بفعل المربين، أو بغير ذلك من مفسدات الفطرة، التي ورد الشرع بالتحذير منها.

والملاحظ على غالب ماورد في القرآن من دلائل الربوبية، أنه جاء في صورة التنبيه والتذكير، وإثارة الفطر والعقول، وذلك أن معرفة الخالق والإقرار بربوبيته، بل وإرادته بالتأله ومحبته، كل ذلك كامن في أعماق الفطرة، وإنما كان دور الدلائل المبثوثة في ما خلق الله من شيء، وما ورد من التنبيه إليها في الآيات القرآنية، أن تستثير هذه الفطرة من مكامنها، وتزيلَ ما ران عليها، فحال بينها وبين مقتضاها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: (ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه، فلم يكلِّفوا أولاً بنفس المعرفة، ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة، إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقر به، وكل مولود يولد على الفطرة، لكن عرض للفطرة ماغيرها، والإنسان إذا ذُكّر ذكر ما في فطرته، ولهذا قال الله في خطابه لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾[1] مافي فطرته من العلم الذي به يعرف ربه، ويعرف إنعامه عليه، وإحسانه إليه، وافتقاره إليه، فذلك يدعوه إلى الإيمان)[2].

---

(١) سورة طه: ٤٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٢٣٨.

والذين بلغ بهم فساد الفطرة إلى حد إنكار الربوبية بالكلية إنما هم أفراد قلائل، وطوائف محدودة على مدى التاريخ[1]، وهم مع ذلك في حقيقة الأمر إنما يجحدون ماتقرّ به نفوسهم وتعرفه قلوبهم، فالاشتغال بنقض دعوى هؤلاء دون تجاوزها إلى تقرير توحيد العبادة، والنبوة والمعاد، ـ وهي العقائد التي بها نجاتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ـ ضرب من مجارات السفهاء، ينزّه عنه كلام رب العالمين، ويُحمل ماورد في القرآن من ذلك على قلته ـ كمناظرتي فرعون ونمرود ـ على أنه من باب دفع الصائل، وإقامة الحجة، وإخماد الخصم المعاند، وإلقامه الحجر، لامن باب الدعوة إلى الإيمان المنجي في الآخرة؛ فإن ذلك لايكون إلا مع توحيد العبادة.

ثانيا ـ أنّ مافي القرآن من دلائل توحيد الألوهية والمعاد: فيها أعظم غنية في هذا الباب، وكونها مسوقة أصلاً للدلالة على التوحيد أو المعاد، أو غير ذلك، لايمنع من الاستدلال بها على هذا المطلب؛ فإنها تدل عليه من طريق التضمن، بشرط ألا يُتوقف بدلالتها عند هذا المطلب، ويهمل ماسيقت له أصلاً، من إثبات توحيد الإلـهية والمعاد، كما وقع في ذلك المتكلمون[2].

---

(١) لاينتقض هذا بموجة الإلحاد الحديثة في الغرب، فلها ظروفها الخاصة، التي تؤكد أنها إنما كانت ثورة اجتماعية على ظلم الكنيسة واستغلالها الدين، لذلك لم تلبث هذه الموجة أن انحسرت، ولاسيما في المعسكر الشرقي، حيث كان الإلحاد إلحاد سلطة لايمثل الشعوب، بدليل عودة الجمهوريات السوفياتية إلى الانتساب للإسلام بعد انهيار الاتحاد.

(٢) من نقاط المفارقة الرئيسة بين منهج السلف، ومنهج المتكلمين في العقائد: إهمالهم التام لتوحيد العبادة، الذي هو قطب الرحى في دعوة الرسل، فلا يتعرض له المتكلمون في كتبهم، وينشغلون عنه بما يعرفه الناس فطرة، من وجود الله ـ تعالى ـ ووحدانيته.

ثالثًا ـ أنه ليس في إقرار الناس بوجود الله ـ تعالى ـ متمدّح، فإن إبليس يشاركهم في ذلك بأتم المعرفة، ولايترتب على ذلك إيمان في الدنيا ولانجاة في الآخرة، وإنما الإيمان والنجاة في التزام مقتضى هذا الإقرار الفطري، بتحقيق التوحيد والخلوص من الشرك، فكان المناسب الاشتغال بما يتعلق به الفلاح في الدنيا والآخرة، ويتضمن الأول، دون الاشتغال بما لامدحة فيه، ولانجاة تترتب عليه، مع كونه لايتضمن الثاني، ولايؤدي غرضه.

وباعتبار ماسبق، يتجلى لنا السبب في ندرة النصوص الشرعية المقتصرة في دلالتها على إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ، أو إثبات وحدانيته، دون مجاوزة ذلك إلى تقرير توحيد العبادة والبعث والنبوة.

ولعل فيما قدمت مايبرر ذكر المعرفة الفطرية أهم وأول دليل شرعي على وجود الله ـ عز وجل ـ، ضمن بحث مقتصر على الأدلة العقلية دون السمعية، ومما يبرر ذلك أيضًا الاعتبارات التالية:

أولاً ـ أن دليل الفطرة وإن لم يكن عقليًا يأخذ صورة من صور الاستدلال العقلي المتنوعة، كالسبر والتقسيم، وقياس الأولى[1]، فليس هو أيضًا دليلا سمعيا تتوقف دلالته على ثبوت الرسالة.

ثانيًا ـ أن المعرفة الفطرية هي الأصل والأساس للأدلة العقلية، وذلك أن المعرفة الفطرية تتناول أمرين:

الأول ـ العلوم الأولية البدهية المغروزة في كل نفس، والتي لاتفتقر إلى استدلال، بل إليها مرجع كل استدلال، وهي محل اتفاق بين جميع العقلاء، مثل: أن النقيضين لايجتمعان ولايرتفعان، وأن الجزء أصغر من الكل، وأن الحادث لابد له من محدث، وما ماثل ذلك من العلوم التي لاتقبل التشكيك ولاتحتمل القدح، ولايوثق بشيء

---

(١) سبق التعريف بهذه المصطلحات ص: ١٢٥، ١٢٨.

إطلاقا إن أمكن إنكارها، أو القدح فيها[1].

الثاني ـ تلك القوة الكامنة في النفس، التي تقتضي معرفة الحق وإرادته وطلبه، وإيثاره على الباطل، فهي معلومة لدى كل إنسان سويّ الفطرة، ومن أعظم الحق الذي تعرفه وتطلبه وتريده: أن لها خالقا بارئا مصورًا، يستحق عليها المحبة والشكر على الإيجاد والإمداد[2].

فبهٰذين الأمرين تقوم قائمة الدليل العقلي، فموادّه مرجعها أخيرًا إلى هذه العلوم الفطرية التي خلقها الله في النفس البشرية، وعليها بناء العلوم والمعارف، كما أن تأثير الدليل العقلي في النفس مهما كانت قوته ووضوحه، وإخضاعه النفس لدلالته، إنما يحصل بما في النفس من فطرة على قبول الحق وإرادته وطلبه.

---

(١) انظر الفصل لابن حزم: ١/ ٤٠.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٨/ ٤٥٨.

obeikandl.com

المطلب الثاني
دلالة الفطرة على وجود الله ـ تعالى ـ

المراد بقولنا: إن معرفة الله فطرية: أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقا مدبرًا، وتستوجب معرفته إياه، وتألّهه له[1].

وهذه الصفة ذاتها هي القوة المغروزة في الإنسان، التي تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وإذا كان قد عُلم بالبراهين اليقينية القاطعة، أن وجود الخالق هو أعظم الحقائق، وأن معرفته والتألّه له أعظمُ المنافع، فإنه يتعين بذلك أن يكون في الفطرة مايقتضي معرفة الصانع والإيمان به[2].

وقد جاء التنبيه إلى هذه المعرفة في عدة مواضع من القرآن والسنة، أذكر فيما يلي أهمها:

١ ـ قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا

---

(١) اعتمدت هنا مادل عليه القرآن والسنة من أن المراد بالفطرة الإسلام، وأعرضت عن ذكر الخلاف أو الإشارة إليه؛ لأن الغرض هنا إنما هو بيان الناحية العقلية في دلالة الفطرة، ومن أراد التوسع فليراجع المجلد الثامن من درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، والباب الثلاثين من شفاء العليل لابن القيم.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٨/٤٥٨، وشفاء العليل لابن القيم: ص٥٠٠.

﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾[1].

وفي المراد بالأخذ والإشهاد قولان للمفسرين:

الأول ـ ماجاءت به السنة من أن الله ـ تعالى ـ مسح على ظهر آدم ـ عليه السلام ـ، فاستخرج منه ذريته، فأشهدهم على أنفسهم بربوبيته، فأقروا له بلسان المقال[2]، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر[3].

الثاني ـ أن المراد بالأخذ والإشهاد خلقهم على الفطرة، المتضمنة الإقرارَ بالخالق، والشهادةَ له بالربوبية، فالإشهاد والإقرار على هذا القول حاصلان بلسان الحال، لابلسان المقال.

وقد ذكر الإمام ابن القيم عشرة وجوه في نظم الآية تدل على رجحان القول الثاني، أهمها أنه ـ تعالى ـ قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: من آدم، ثم قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد في قراءة بعض السبعة، و﴿ذرياتهم﴾ بالجمع في قراءة بعضهم الآخر[4]، ولم يقل: ذريته، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، والشاهد لابد أن يكون ذاكرًا لما شهد به[5].

فإذا أخذنا بهذا القول للوجوه التي ذكرها ابن القيم، فإن معنى الآية يكون حينئذ: اذكر يا نبينا لبني آدم أخذنا لهم من أصلاب آبائهم، وخلقنا لهم على الفطرة مقرين بخالقهم، شاهدين على أنفسهم بأنه ربهم[6].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤.

(٢) انظر المسند: ١/ ٤٤، ٤٥، ٢٧٢، والموطأ: ٢/ ٨٩٨، ٨٩٩، وسنن أبي داود: (٤٧٠٣)، والترمذي: (٣٠٧٥) و(٣٠٧٨)، وغيرها من المواضع، وشرح الطحاوية بتحقيق التركي والأرناؤوط: ١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٨.

(٣) انظر الروح لابن القيم: ص٢٢٨.

(٤) انظر السبعة لابن مجاهد: ص٢٩٨.

(٥) انظر كتابه الروح: ص٢٣٤، ٢٣٥.

(٦) انظر الروح لابن القيم: ص٢٣٠، ودرء تعارض العقل والنقل: ٨/ ٤٨٧.

٢ ـ ما جاء في جواب الرسل للكفار لما قالوا لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن قول الرسل ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ يحتمل أمرين:

الأول ـ أفي وجوده شك؟

والثاني ـ أفي تفرده باستحقاق العبادة دون غيره شك[٢]؟.

ورغم أن السياق القرآني يدل على الثاني ـ لأن الشك متوجه فيه لمضمون دعوة الرسل، ومعلوم أن مضمون دعوتهم توحيد العبادة ـ إلا أن اللفظ يتناول الشك في الله ـ تعالى ـ من كل وجه، بما في ذلك الشك في وجوده، والعبرة بعموم اللفظ كما هو معروف[٣].

فيكون الرسل قد احتجوا على الكفار بحجتين:

الأولى ـ الفطرة، فإن قولهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾: استفهام تقرير مفاده النفي[٤]، أي أن الله ـ تعالى ـ فوق الشك، وأن الشك في إلهيته مما تنكره الفطر، وهذه الحجة داخلية، نابعة من نفس الإنسان.

والثانية ـ العقل، وذلك في قولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإن هذا استدلال بالخلق على الخالق، وهذه الحجة خارجية، مأخوذة من دلالة الأثر على المؤثر.

٣ ـ قوله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) سورة إبراهيم: ٩، ١٠.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٧٧.

(٣) انظر الرسالة للشافعي: ص٥١ فقرة: ١٧٣ ومابعدها.

(٤) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/ ٣٣٩.

يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وقد جاء نصب (فطرةَ) على الإغراء: بمعنى: الزموا فطرة الله، على أصح الأقوال[2]. كما جاء مثل ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[3]، قال مجاهد: فطرة الله[4].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، إما أن يكون خبرًا بمعنى الطلب، فيكون المراد: لاتبدّلوا خلق الله، بإفساد الفطرة التي فطر الناس عليها، وإما أن يكون خبرًا على بابه، فيكون المعنى: لايقدرُ أحدٌ على تغيير خلق الله[5].

والاحتمال الأخير؛ إن أريد به أن الفطرة لاتتغير ولاتتبدل مطلقا، فإنه يردّه مارواه الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[6]، فهو صريح في تمكن المربي من إفساد الفطرة وتبديلها.

وإن أريد به أنه لايقدر أحد على تبديل سنة الله ـ تعالى ـ في خلق الناس جميعا على الفطرة، وأنه مامن مولود إلا ويولد عليها، لامبدل ولامغيرّ لهذه الفطرة من أصلها، وإن كان يطرأ عليها بعد ذلك مايفسدها ويغيرها، فهذا حق لاشك فيه.

---

(١) سورة الروم: ٣٠.
(٢) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٧/ ١٢١.
(٣) سورة البقرة: ١٣٨.
(٤) انظر تفسير البغوي: ١/ ١٢١.
(٥) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٤٧٨، وتفسير البيضاوي: ٢/ ٢٢٠.
(٦) انظر صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلى عليه...، (١/ ٤٥٦)، برقم (١٢٩٢)، وصحيح مسلم: ، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة...، (٤/ ١٦٢٤)، برقم (٢٦٥٨).

وقد يكون المراد بالتغيير المثبت في الحديث: الحيلولة دون أداء الفطرة لوظيفتها، وإظهارها لمقتضاها، لا أنها تنعدم فلا يبقى لها أثر بالكلية، فإن ذلك لو حصل لما ظهر مقتضى الفطرة وقت الشدائد، ولما بقي فيها حجية على من أُفسدت فطرته صغيرًا، وعلى هذا التفسير لتبديل الفطرة، فلا منافاة بين الحديث وبين الاحتمال الثاني لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ ماورد من ذكر استيقاظ الفطرة عند الشدائد، وظهور أثرها، وبروز مقتضاها على النفوس، من اللجوء بالدعاء إلى الله ـ تعالى ـ، والتوجه إليه دون غيره بالاستغاثة، فهي تُقبل عليه إقبال العارف بمن يملك نجاته، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[1]، ومافي معناها من الآيات[2] التي تنبه إلى عودة الناس عند الشدائد إلى مقتضى الفطرة التي فُطروا عليها، وهذا من أعظم الشواهد الحسية على وجود المعرفة الفطرية واستقرارها في النفس.

٥ ـ استفهامات التقرير بالربوبية، نحو قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ

---

(١) سورة الزمر: ٨.

(٢) انظر مثلاً: الأنعام: ٤٠، ٤١، ويونس: ٢٢، والعنكبوت: ٦٥، والروم: ٣٣، ولقمان: ٣٢، وفصلت: ٥١.

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[١].

فهذه الآيات وماشابهها تتضمن تقريرًا للناس بأمر تعرفه فطرهم، وهو ماغرسه الله فيها من معرفته[٢].

٦ ـ وقد دلّت السنّة النبوية على ما دل عليه القرآن، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء». ثم يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾. الآية[٣].

وروى مسلم بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال ـ فيما يرويه عن ربه أنه قال ـ: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانًا»[٤].

فإن قيل: ألا يلزم من استقرار معرفة الله ـ تعالى ـ في الفطرة عدم وقوع إنكار الخالق؟ والحاصل أنه واقع بالفعل، فكيف اجتمع إنكاره مع كونه معروفا بالفطرة؟

كما قد يقال أيضًا: إذا كانت معرفة الخالق والإقرار به ثابتًا في كل الفطر، فكيف ينكر ذلك كثير من النظار، والأصوليين، المشتغلين

---

(١) سورة النمل: ٦٠ ـ ٦٤، وانظر في مثل معنى تلك الآيات: يونس: ٣١، ٣٢، والعنكبوت: ٦١، ٦٣، ولقمان: ٢٥، والزخرف: ٨٧.

(٢) انظر دلائل التوحيد للقاسمي: ص٢٥، ٢٦.

(٣) سبق تخريجه قبل صفحتين.

(٤) الصحيح، كتاب الجنة...، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٤/ ١٧٤١)، حديث رقم: (٢٨٦٥).

obeikandi.com

بإقامة الأدلة العقلية على المطالب الإلـٰهية؟

والواقع أن الاعتراض بمثل هذا نابع عن فهم قاصر لمعنى كون الإنسان مفطورًا على الإسلام، ومخلوقا على الحنيفية، إذ ليس المراد بهذا ماتوهمه هذا المعترض، من أن الإنسان حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويطلبه فعلاً[1]، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[2]، وإنما المراد: أن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، بمعنى أن نفس الفطرة تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته والإخلاص له، وذلك يحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة، إذا سلمت من المعارض[3].

فمن أنكر الصانع إنما أنكره لفساد فطرته بطارىء ما، حال بينها وبين مقتضاها، فجاء التصريح في القرآن بأن الكفار في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، وإن لم يذعنوا له، كما قال ـ تعالى ـ في شأن فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]، وقال في أهل النار: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾[5] وقال عن كفار قريش: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[6].

بل إن نفس كلمة «كفر» مأخوذة من الستر والتغطية، وهذا أصل

---

(١) لايتعارض هذا مع ماسبق تقريره ص١٩٨، من أن الفطرة تقتضي معرفة الحق وطلبه، إذ المقصود هنالك وجود القوة المقتضية لذلك، والمنفي هنا وقوع ذلك على التمام.

(٢) سورة النحل: ٧٨.

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٨/ ٣٨٣، ٣٨٤ وشفاء العليل لابن القيم: ص٤٧٩.

(٤) سورة الإسراء: ١٠٢.

(٥) سورة الأنعام: ٢٨.

(٦) سورة الأنعام: ٣٣.

معناها في اللغة[1]، وأطلقت على الكافر؛ لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحُجُب الشبهات والشهوات، فإذا زالت هذه الحجب بالحجج والبينات ظهرت مقتضيات الفطرة، كما حصل لسحرة فرعون، حيث قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾[2]، فكان أسلوب القرآن في الاستدلال بالخلق على الخالق كثيرًا مايأتي في صورة التذكير، لافي صورة إنشاء معرفة جديدة لم تكن مغروزة في النفس، وهذا هو شأن المعارف الأولية.

أما إنكار بعض النظار، أو كثير منهم لدلالة الفطرة، فإن أول من عُرف به في الإسلام هم أهل الكلام، الذي اتفق السلف على ذمه وتضليل أهله، ومع ذلك فإن إنكارهم لها لايعني أبدًا انتفاءها لديهم؛ فإن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات مالا يعلم أنه قائم بنفسه، وقيام الصفة بالنفس غيرُ شعور صاحبها بأنها قامت به، كما أن وجود الشيء في الإنسان غير علم الإنسان به، ومثال ذلك: صفات بدنه؛ فإن منها مالا يراه مطلقا، ومنها مالا يراه إلا إذا تعمد، ومنها مالا يراه لمانع في بصره، فكذلك صفات نفسه[3].

ويذكر شيخ الإسلام أنّ مما يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لاتُتصوّر إلا بإرادة تقوم بالفاعل، ويمتنع أن يفعلها وهو غير ناوٍ لها مريد، كالصلاة والصيام والحج والوضوء، ومع ذلك نجد كثيرًا من العلماء، فضلاً عن العامة، يستدعون النية بألفاظ يتكلفونها، ويشكون في وجودها مرة بعد مرة، حتى يخرجوا إلى ضرب من الوسوسة يشبه الجنون، وكذلك حب الله ـ تعالى ـ في قلب كل مؤمن، لايندفع ذلك

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥/ ١٩١.

(٢) سورة طه: ٧٢.

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/ ٣٤٠، ٣٤١.

حتى يزول الإيمان بالكلية، ومع هذا فكثير من أهل الكلام أنكروا محبة الله، وقالوا: يمتنع أن يكون مُحِبا، أو محبوبا[1]، وجعلوا هذا من أصول الدين، فكذلك الشأن في المعرفة: هي موجودة في قلوب هؤلاء، ولكن أنكروها، وقالوا: لاتحصل إلا بالنظر، كما قالوا في المحبة، ثم قد يكون ذلك الإنكار سببا لامتناع معرفة ذلك في نفوسهم؛ فإن الفطرة قد تفسد وتزول، كما أنها قد تكون موجودة ولاترى[2].

وقد اعتذر بعض العلماء عن المتكلمين في موقفهم هذا من الفطرة؛ بأنهم إنما سلكوا طريق النظر مبالغة في تقرير الربوبية، وقطعًا لأطماع الملاحدة[3].

وظاهرٌ أن هذا الاعتذار إنما هو في حق من أقر منهم بكفاية المعرفة الفطرية، أما من أنكر كفايتها فلا يصلح هذا الاعتذار له.

والمتكلمون مع تعويلهم التام على النظر العقلي في إثبات الربوبية لم يستطيعوا تجاهل شهادة الفطرة بها كلية، فتجد في كلام بعض أئمتهم من الاعتراف بها وتقرير حجيتها ما يخالف موقفهم العام منها.

فهذا الراغب الأصفهاني يقول: (معرفة الله ـ تعالى ـ العامية ـ أي الإجمالية ـ مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلاً فعله، ونقله من الأحوال المختلفة)[4].

وهذا الشهرستاني يصرح بشهادة الفطرة على وجود الله ـ تعالى ـ،

---

(١) هذا لازم مذهبهم في تأويل المحبة بالإرادة، ولم أقف على تصريح لأحد منهم بهذا الامتناع، انظر الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٤٥، ٣٤٦ وشرح الأسماء والصفات للرازي: ٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/ ٣٤١ ـ ٣٤٤.

(٣) ذكر هذا القاسمي عن القزويني كما في دلائل التوحيد: ص٢٥، ولم أعرف مَنْ القزويني هذا ولاكتابه الذي ينقل عنه القاسمي.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص١٩٩.

ويفضل دلالتها على دلالة الحدوث والإمكان، فيقول: (ماشهد به الحدوث، أو دل عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات، دون ماشهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج في ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات، فيُرغب إليه ولايرغب عنه، ويُفزع إليه في الشدايد والمهمات؛ فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب، والحادث إلى المحدث)[1].

وهذا الفخر الرازي ـ أكثر المتكلمين إغراقًا في المعقولات ـ يذكر في تفسيره عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وجوه دلالة الفطرة على وجود الله ـ تعالى ـ، فيذكر لطمة الصبي، وما قال بعض العقلاء؛ من أنها تدل على وجود الصانع؛ لأن الصبي يصيح سائلاً عمن ضربه، فدل على أنه مفطور على أن كل حادث لابد له من محدث، فإذا شهدت الفطرة بهذا فشهادتها بافتقار جميع الحوادث إلى الفاعل أولى.

ثم ذكر دلالة هذه اللطمة على التكليف ووجوب الجزاء ووجود الرسول.

وذكر ـ ثانيا ـ شهادة الفطرة باستحالة حدوث دار منقوشة متقنة البناء محكمة التركيب، إلا بوجود نقاش عالم، وبانٍ حكيم، فمن باب أولى أن تشهد الفطرة بافتقار العالم إلى الفاعل المختار الحكيم، ثم ذكر ظهور مقتضى الفطرة عند الشدائد، وغير ذلك مما جعله وجوها لشهادة الفطرة بوجود الله ـ تعالى ـ[2].

بل وهذا الفيلسوف ابن رشد[3] يقول بعد أن قرر دليلي الاختراع

---

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام: ص١٢٥.

(٢) انظر مفاتيح الغيب: ١٩/ ٩١ ـ ٩٣.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، له إمامة في الفقه والخلاف، اعتنى بتلخيص كتب أرسطو عناية تامة. توفي سنة ٥٩٥هـ. انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٣/ ١٢٢ ـ ١٢٦، وعن عقيدته انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٦/ ٢٣٧ ـ ٢٤٥.

والعناية من القرآن على وجود الله ـ تعالى ـ: (فهذه الطريق هي الصراط المستقيم، التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم عليه بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى، وإلى هذه الفطرة الأولى المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.)[1].

وقد نقل القاسمي عن القزويني أنه أقر بالمعرفة الفطرية، وأن أهل الكلام يعلمون أن شهادة الفطرة أقرب إلى الخلق، وأسرع تعقلاً من دلالة الإمكان والحدوث[2].

---

(١) مناهج الأدلة: ص٦٢.

(٢) انظر دلائل التوحيد: ص٢٤، ٢٥.

obeikandl.com

المبحث الثاني
دلالة المخلوقات على الخالق
تمهيد
دلالة كل شيء على الله ـ تعالى ـ

لقد جاءت الأدلة العقلية الشرعية على إثبات الربوبية مناسبة في كثرتها لمكانة هذا الأصل من الاعتقاد.

وإذا كان من رحمة الله ـ تعالى ـ وحكمته أن ييسر للناس طرق العلم وأنواع الأدلة بقدر حاجتهم إليها[1]، فليس أمرٌ الناس أحوج إليه من معرفتهم بربهم ـ عز وجل ـ، فكانت السبل الشرعية المبذولة للدلالة على هذا الأصل العظيم فوق الحصر، وغاية مايوجد في كلام من تكلم في أدلته إنما هو ذكر لأجناسها وأنواعها، أو أهمها وأشهرها، أو ذكر لوجوه الدلالة التي تنتظم أفرادًا كثيرة منها، وربما يُذكر وجه منها على أنه دليل واحد، وهو في الحقيقة جنس تحته أدلة لاتُحد، كما قال ابن رشد في دلالة الاختراع: (وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات)[2].

ويمكننا أن نقول ابتداءً: إن كل شيء يدل على وجود الله ـ تعالى ـ؛ إذ مامن شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته ـ سبحانه ـ، ومامّ إلا خالق ومخلوق، والمخلوق يدل على خالقه فطرةً وبداهةً، إذ مامن أثر إلا

---

(١) انظر الرد على المنطقيين لابن تيمية: ص٢٥٤، ٢٥٥، وشرح الطحاوية لابن أبي العز: ص٨٦ بتخريج الألباني.

(٢) مناهج الأدلة: ص٦١.

وله مؤثر، كما اشتهر في قول الأعرابي الذي سئل: كيف عرفت ربك؟ فقال ـ بفطرته السليمة ـ: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وجبال وبحار وأنهار، أفلا تدل على السميع البصير؟[1].

وقد نبه القرآن العزيز إلى دلالة كل شيء على الله ـ تعالى ـ، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2]، ووجه الدلالة هنا كامن في لفظ الربوبية، فإنه يتضمن السيادة والملك والتدبير[3]، والخلقُ من لوازم ذلك، إذ لايكون مالكًا للعالمين ومدبرًا لهم إلا خالقهم، وذلك مضمون قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[4]، وفي هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[5] وفيه التصريح بالخلق، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾[6]، وفيه التصريح بالملك، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[7]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ

---

(١) انظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير: ص٨٣.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٤.

(٣) انظر القرطين لابن مطرف: ٣ ومفردات الراغب: ١٨٤، وقد ورد النهي عن إطلاق الربوبية على المخلوق عند إضافته إلى المكلفين من الخلق، كقول: اسق ربك، أطعم ربك، بخلاف إضافته إلى غير المكلفين، فإنه يجوز إطلاقها على المخلوق، كقولهم: رب الثوب، ورب الدار، لعدم وقوع عبادة غير الله في هذه الحال، انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٩/ ٣٤٢.

(٤) سورة الفاتحة وغيرها خمسة مواضع، انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ص٢١٧.

(٥) سورة الزمر: ٦٢.

(٦) سورة النمل: ٩١.

(٧) سورة الأعراف: ٥٤.

إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾[1]، وهنا صرح بالتدبير والخلق.

والمقصود: أن كل ماذُكر في القرآن من إضافة الربوبية أو شيء من معانيها إلى المخلوقات ـ جميعها أو بعضها، سواء عبّر عنها بلفظ «العالمين» أو مافي معناه ـ، كل ذلك يتضمن إشارة إلى دلالة هذه المربوبات على ربّها، وشهادة هذه الآثار بوجود مؤثرها، فدل ذلك على أن القرآن لاتكاد تخلو سورة من سوره، بل ربما آية من آياته، إلا وفيها إشارة إلى دليل وجود الله ـ تبارك وتعالى ـ، وبذلك يتقرر ماذكرنا، من أن أدلة وجود الله ـ عز وجل ـ تفوق العدّ والحصر، ويتأكد قول أبي العتاهية:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[2]

ويتبين صحة ماقيل: إن لله طرائق، بعدد أنفاس الخلائق[3].

وعلى هذا النحو من الاستدلال بآثار الربوبية في العوالم على الرب ـ جل وعلا ـ، جرى استدلال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، أمام من جحد الربوبية، كما كان لإبراهيم مع النمرود، فيما أخبر الله ـ تعالى ـ عنه بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾[4]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾[5] أي أن الدليل على وجوده: حدوث هذه الأشياء بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل

---

(١) سورة يونس: ٣.

(٢) انظر ديوانه: ص١٢٢، ونسبه ابن كثير في تفسيره إلى ابن المعتز، انظر: ١/ ٢٦.

(٣) انظر دلائل التوحيد للقاسمي: ص٢٢.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٥) سورة البقرة: ٢٥٨.

ضروري، لذلك لما كابر النمرود، وزعم أنه يحيي ويميت، لم يسلّم له إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ولم ينتقل إلى حجة أخرى، بل طرد الحجة نفسها[1]، حتى أظهر مكابرة خصمه، فكأنه قال له: إن كنت صادقا في زعمك أنك تحي وتميت، فالذي يحي ويميت هو الذي يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب لتثبت دعواك. ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[2].

وهذا كليم الله موسى ـ عليه السلام ـ، لما قال له فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[3] أي: أنه قد ثبت خلق وهداية للخلائق، ولابد لها من خالق وهاد، وذلك الخالق والهادي هو الرب، لا رب غيره[4].

وهذا الجواب ـ كما يقول البيضاوي ـ: (في غاية البلاغة، لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات، المنعم على الإطلاق هو الله ـ تعالى ـ، وأن جميع ماعداه مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله)[5].

وفي المراد يقول موسى عن الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ يقول صاحب أضواء البيان: (فيه للعلماء أوجه لايكذب بعضها بعضا، وكلها حق، ولامانع من شمول الآية لجميعها)، ثم ذكرها،

---

(١) انظر الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٩٠، ٤٩١، وعمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر: ٢/ ١٦٨، وقد غلّط ابن القيم من قال إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ انتقل إلى حجة أخرى، وممن قال بهذا: الغزالي في القسطاس المستقيم، انظر مجموعة القصور العوالي: ١/ ١٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٣) سورة طه: ٤٩، ٥٠.

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي: ٣/ ٢٠٩.

(٥) تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٩.

وهي باختصار:

ـ أنه ـ تعالى ـ أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة أزواجا لهم، ثم هداهم لطريق المنكح...

ـ أنه ـ تعالى ـ أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى مايصلحه.

ـ أنه ـ تعالى ـ أعطى كل شيء صورته المناسبة له، فلم يجعل الإنسان في صورة بهيمة...

ـ أنه ـ تعالى ـ أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به...

ـ أنه ـ تعالى ـ أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله[1].

وقد جاء استدلال موسى على الربوبية بدلالة المخلوقات مؤكَّدًا مرةً بعد مرة، لمافي هذه الدلالة من ضرورة عقلية، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2]، فكان جواب موسى ـ عليه السلام ـ على إنكار فرعون للخالق ـ جل وعلا ـ بأنه أعرف من أن ينكر[3]، وأظهر من أن يشك فيه، فإن العلم به مستقر في الفطر، مغروز في القلوب، كما أن افتقار

---

(١) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي: ٤/ ٤٥٢، ٤٥٣.

(٢) سورة الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨.

(٣) قول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سؤال إنكار، لاسؤال استعلام عن الماهية؛ لأن فرعون لم يكن مقرًا بالصانع البتة، والسؤال عن الماهية إنما يكون بعد الاعتراف بالوجود، انظر منهاج السنة لابن تيمية: ٢/ ٢٧١، ودرء التعارض له: ١٠/ ٢٧٢، ٢٧٣، وشرح الطحاوية: ١/ ٢٦.

السمٰوات والأرض ومابينهما، والمشرق والمغرب، وسائر الموجودات، إلى الصانع، واستقرار ذلك في فطر الناس، أمر لايمكن إنكاره إلا عنادًا، وقد ذكر موسى في حجته السمٰوات والأرض والليل والنهار والأولين والآخرين، فذكر الأعلى والأسفل، والميامن والمياسر، والمتقدم والمتأخر، وهذه هي الجهات الست للإنسان، وذكر التقدم والتأخر بالزمان بعد ذكر التقدم والتأخر بالمكان، وذكر خلق الإنسان بعد أن ذكر الخلق العام، وفي ذلك كله إمعان في التنبيه على دلالة كل شيء على الخالق ـ جلّ وعلا ـ، ولم يقل موسى في احتجاجه: إن كنتم موقنين بكذا وكذا، بل أطلق، فكأنه أراد أن يقول لهم: أي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين: اليقين برب العالمين، وكذلك لما رماه فرعون بالجنون أجابهم موسى بأنكم أولى بهذا الوصف؛ فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية، وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق، فلما ذكر موسى أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن بالله، ـ واليقين بشيء هو من لوازم العقل ـ، بين ثانيا أن الإقرار به ـ تعالى ـ هو أيضا من لوازم العقل[1].

والمقصود بالتنبيه إلى أن منهج الأنبياء في الاستدلال على الربوبية هو استشهاد هذا الكون بأجمعه، واستنطاق الفطرة بما تعرفه وتقرّ به، من حاجة الخلق إلى خالق، وافتقار البرية إلى بارىء.

يقول أبو سليمان الخطابي ـ فيما نقله عنه الإمام ابن تيمية ـ: (إنك إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك، واعتبرتها بفكرك، وجدته كالبيت المبني، المعد فيه مايحتاج إليه ساكنه من آلة وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة[2]

---

(١) لخصت تقرير هذه الآيات من كلام ابن تيمية في درء التعارض: ١٠/ ٢٧٤، ٢٧٥، ومن مجموع الفتاوى: ١٦/ ٣٣٥، ٣٣٦.

(٢) أي مضمومة بعضها إلى بعض. انظر غريب الحديث للخطابي: ٢/ ٣٨، ٣/ ٨٩.

كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهيئة للمطاعم والملابس والمشارب، وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب، مستعملة في المرافق، والإنسان كالمملّك البيت، المخوّل فيه، وفي هذا كله دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن له صانعا حكيما، تام القدرة، بالغ الحكمة)[1].

فالعالم كلّه إذًا شاهد ودليل على وجود الله ـ تعالى ـ؛ لذلك سمي عالَمًا، يقول ابن تيمية: (العالَم بالفتح مثل الخاتَم: مايعلم به، كما أن الخاتم مايختم به، ... ويسمّى كل صنف من المخلوقات عالَما؛ لأنه عَلم وبرهان على الخالق ـ تعالى ـ)[2].

وهذه الدلالة مستندة إلى حقيقة فطرية بدهية تقدمت الإشارة إليها[3]، ألا وهي افتقار الأثر إلى مؤثر، واستحالة وجوده بدونه، وإلى هذه القضية الأولية مردّ الأنواع والوجوه التي تتصرف إليها هذه الدلالة، دلالة المخلوق على الخالق، والذي يحدد وجه الدلالة هو طبيعة الأثر في المخلوق، الناتجة عن صفة قائمة بالخالق ـ جل وعلا ـ، فمثلاً وجود المخلوق من أصله بعد عدمه هو أثر دال على خالقه القدير البديع، الذي اخترعه من العدم، على غير مثال سابق، وإذا اعتبرت مافي هذا المخلوق من أثر الإتقان والتسوية، دلك ذلك على وجود خالقه العليم الحكيم، الذي أتقنه وسوّاه، وهكذا إذا نظرت إليه من جهة مافيه من العناية والموافقة لغيره من المخلوقات، أو من جهة مافيه من التدبير والتسخير، أو غير ذلك من الآثار القائمة بهذا المخلوق أو ذاك،

---

(١) بيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٨٠. وانظر فصل (حقيقة الكون) من كتاب مقومات التصور الإسلامي، لسيد قطب.

(٢) النبوات: ص٢٦٨، وانظر أصول الدين للبغدادي: ص٣٤.

(٣) انظر فيما سبق ص: ١١٦.

الشاهدة بوجود خالقه.

وعلى هذا النحو تتنوع وجوه الدلالة في المخلوقات على الخالق ـ جل وعلا ـ، وقد تجتمع هذه الوجوه أو كثير منها في مخلوق واحد، فيكون آية لوجود الله ـ تعالى ـ من نواح مختلفة.

كما قد يقتصر بعض المخلوقات على وجوه محدودة، فدلالة حصاةٍ ملقاة في الفلاة ليست كدلالة خلق الإنسان، وهكذا خلق الإنسان ليس كخلق السموات والأرض، كما وللناظر والمستدل دور في هذا لايخفى[1].

وفيما يلي سوف أذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ ماوقفت عليه من أهم مظاهر الدلالة في المخلوقات ـ من حيث الجملة ـ على خالقها، مراعيا عدم التكرار ما أمكن، فإن بين هذه المظاهر تلازما وتداخلا قد يتعسر معه تمييز بعضها عن بعض.

ثم أتبع ذلك بذكر صور هذا الدليل من القرآن ملخصةً في جنسين يشتملان المخلوقات كلها:

الأول ـ خلق الإنسان.

الثاني ـ خلق السموات والأرض ومابث الله فيهما من دابة.

مستأنسًا في هذا التقسيم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[2] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾[3].

---

(١) انظر آيات الله في الآفاق، أو طريقة القرآن في العقائد لمحمد أحمد العدوي: ص١.

(٢) سورة فصلت: ٥٣.

(٣) سورة الشورى: ٢٩.

المطلب الأول

مظاهر دلالة المخلوقات على الخالق

سأبين بحول الله ـ تعالى ـ في هذا المطلب مظاهر دلالة المخلوقات على الخالق من خلال خمس دلالات:

أولاً ـ دلالة الخلق والاختراع

يراد بهذه الدلالة: ماظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودة[1]، أي: إيجادها بعد العدم.

ولعل هذه الدلالة أقرب الوجوه وأظهرها، فإن وجود الموجودات بعد العدم، وحدوثها بعد أن لم تكن، يدل بداهة على وجود من أوجدها وأحدثها، ومامن شك أن هذه الدلالة قائمة على العلم بحدوث هذه المخلوقات، وعدم قدمها وأزليتها، بيد أن العلم بهذا حاصل بالضرورة، من طريقي الحس والخبر الصادق.

يقول ابن تيمية: (نفس حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة، بل مشهود لايحتاج إلى دليل، وإنما يعلم بالدليل مالم يعلم بالحس وبالضرورة، والعلم بحدوث هذه المحدثات علم ضروري، لايحتاج إلى دليل، وذلك معلوم بالحس أو بالضرورة: إما بإخبارٍ يفيد العلم الضروري، أو غير ذلك من العلوم الضرورية)[2].

---

(١) انظر مناهج الأدلة لابن رشد: ص٦٠.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٢١٩.

وليس شرطا أن يقف كل أحد على حدوث كل شيء حتى يصدق بذلك، بل إن ذلك غير ممكن، كما يفهم من قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

أما ما ابتدعه المتكلمون من الاشتغال بإثبات هذه الحقيقة الضرورية، واختراع دليل الجواهر والأعراض للتدليل عليها، فمفارقة واضحة للمنهج الشرعي القرآني، واستدلال عقيم بالغامض الخفي المشكوك فيه، بل المقطوع ببطلانه، على الواضح الجلي، الذي هو حق لايخالجه شك، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ الحديث عن مفارقة الطريقة الكلامية لطريقة القرآن في الاستدلال بحدوث المخلوقات، عند الكلام على خلق الإنسان[2].

ولقد أحسن ابن رشد حين ردّ العلم بهذه القضية والتي قبلها ـ أعني حاجة الحادث إلى محدث، والمخترَع إلى مخترِع ـ إلى الفطرة، حيث يقول: (وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السمٰوات، وهذه الطريقة تُبنى على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس، أحدهما: أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات... فإنا نرى أجسامًا جمادية ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعا أن هٰهنا موجدًا للحياة ومنعما لها، وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ، وأما السمٰوات فنعلم من قبل حركاتها التي لاتفتر أنها مأمورة بالعناية بما هٰهنا، ومسخرة لنا، والمسخر مأمور مخترع من قبل غيره ضرورة.

وأما الأصل الثاني: فهو أن كل مخترَع فله مخترِع، فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلاً مخترِعًا له)[3].

---

(١) سورة الكهف: ٥١.

(٢) ص٢٥٩ ومابعدها.

(٣) الكشف عن مناهج الأدلة: ص٦١.

وسبب تفريق ابن رشد بين الحيوان والنبات وبين السموات في طريق إدراك حدوثها أنا نعلم حدوث الأولين بالحس والمشاهدة، أما حدوث السموات والأرضين والكواكب والشمس والقمر وغيرها ممالم نشاهد حدوثه فإنما نقف على حدوثها من طرق أخرى غير الحس والمشاهدة، نحو ماذكره من التسخير والعناية، ونحو مانراها عليه من النظام والإتقان والإحكام والتقدير والتدبير، وغير ذلك من ملزومات الحدوث، فهذه كلها مسالك للعلم الضروري بحدوثها، غير طريق المشاهدة والحس.

وقد جاء التنبيه على دلالة الخلق في القرآن في عدة مواضع، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾[2] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾[3]، فدلت هذه الآيات على حاجة المخلوق إلى خالق ضرورة، ودلت أيضًا على بطلان قول المتكلمين: إن الله ـ تعالى ـ عندما يخلق شيئًا من شيء، فإنما يتم ذلك بتغيير الصفات والأعراض، مع بقاء الجواهر على حالها، وأنكروا أن تكون نفس الأعيان القائمة بنفسها انقلبت حقيقتها فاستحالت ذاتها[4].

وكذلك سائر الآيات التي تذكر الخلق، وتتحدث عن حدوث الذوات وصفاتها، فكلها تشير إلى هذه الدلالة، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ

---

(١) سورة الطور: ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة مريم: ٦٧.

(٣) سورة مريم: ٩.

(٤) انظر درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٢٢٠ ومابعدها، و٥/ ١٩٦، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ نقد هذا القول في ص: ٢٦٠.

وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ (١).

وقد نبه ابن رشد إلى أن من أراد معرفة الله ـ تعالى ـ حق المعرفة من طريق دليل الاختراع، فعليه أن يتعرف على جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع(٢).

وينبغي التنبّهُ هنا إلى أن التعرف على جواهر الأشياء وخواصها إنما هو شرط في معرفة الله ـ تعالى ـ حق المعرفة من طريق دليل الاختراع فحسب كما ذكر ابن رشد، وقد أحسن بذكر هذا القيد، فإن من الخطأ الإطلاق والتعميم في هذا المقام؛ لأنا نعلم أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأكثر أتباعهم من الأولياء والصالحين هم أعرف الخلق بالله قطعًا، ولم تتوقف معرفتهم به على معرفة جواهر الأشياء، والوقوف على حقيقة الاختراع فيها، فلديهم إلى معرفة الله ماهو أعظم من هذا الطريق، ألا وهو الوحي بالنسبة للأنبياء، والإيمان بالنسبة لأتباعهم(٣).

وقد يعبر عن دلالة الخلق هذه أو الاختراع ـ كما يسميها ابن رشد ـ بعبارات أخرى، كالعجز والنقص والافتقار(٤)، وكالحدوث

---

(١) سورة النور: ٤٣ ـ ٤٥.
(٢) انظر مناهج الأدلة: ص٦١.
(٣) انظر مجموع الفتاوى: ٢/ ١ ومابعدها فهو مهم جدًا.
(٤) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٣/ ٢٦٥، ومجموع الفتاوى له: ٢/ ٩ ـ ١٢، والرد على المنطقيين له: ص٣٤٥.

والإمكان في الذوات والصفات[1]، وذلك أنا إذا شاهدنا وجود بعض الموجودات بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها ـ كالحيوانات والنباتات والمعادن والسحاب والمطر والرعد والبرق، وكما نشاهد من حركات الكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وحدوثهما بعد بعضهما ـ فإنا بذلك نعلم يقينا بحدوثها وافتقارها إلى محدث، ولايكون هو محدثا، كما نعلم ضرورة إمكانها وحاجتها إلى واجب بنفسه، وكل ماكان محدثا ممكنا فهو مربوب مصنوع فقير، لابد له من رب خالق غني[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (كل واحد من الحدوث والإمكان دليل على الافتقار إلى الصانع، وإن كانا متلازمين... وكون الممكن والمحدث مفتقرا إلى الفاعل هو من لوازم حقيقته، لايحتاج أن يعلل بعلة جعلته مفتقرا، بل الفقر لازم لذاته، فكل ماسوى الله فقير إليه دائما، لايستغني عنه طرفة عين، وهذا من معاني اسم الصمد، فالصمد: الذي يحتاج إليه كل شيء، وهو مستغن عن كل شيء، وكما أن غنى الرب ثبت له لنفسه لا لعلة جعلته غنيا، فكذلك فقر المخلوقات وحاجتها إليه ثبت لذواتها، لا لعلة جعلتها مفتقرة إليه)[3].

وقد يُساق دليل الخلق والاختراع هذا في هيئة تقرير الافتقار إلى مسبب الأسباب في وجود الموجودات، كما هو تعبير ابن خلدون[4] حيث يقول: (اعلم أن الحوادث في عالم الكائنات، سواء كانت من

---

(١) انظر شرح الأصفهانية: ص١٦، والممكن هو ماكان قابلاً للوجود والعدم، والحادث ماكان مسبوقا بعدم، انظر الأربعين لرازي: ١/ ١٠١.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٣/ ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) الرد على المنطقيين: ص٣٤٦.

(٤) هو عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن خلدون، اشتهر بمقدمة تاريخه، التي أسس فيها قواعد علم الاجتماع، توفي سنة ٨٠٨. انظر البدر الطالع للشوكاني: ١/ ٣٣٧.

الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلابد لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقر العادة! وعنها يتم كونه، وكل واحد من تلك الأسباب حادث أيضا، فلابد له من أسباب أخرى، ولاتزال تلك الأسباب مرتقية، حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها، لا إله إلا هو ـ سبحانه ـ)[1].

وواضح أن مضمون هذا الكلام إنما هو إبطال التسلسل في المؤثرات، وذلك أن دلالة الخلق والاختراع لاتتم إلا بإثبات بطلان تسلسل الأسباب ـ التي جعلها الله ـ تعالى ـ واسطة في وجود المحدثات ـ إلى مالا نهاية، فالإنسان مثلاً سبب وجوده والداه، وكذلك الشأن في الوالدين، فلو تسلسل الأمر إلى مالا نهاية لكان في ذلك شبهة تقدح في الحاجة إلى الخالق ـ جل وعلا ـ، بيد أن هذه الشبهة ظاهرة البطلان عند جميع العقلاء، بل هي معلومة الفساد بالضرورة، وقد أمر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالاستعاذة بالله ـ تعالى ـ، والانتهاء عند ورود هذه الوساوس والشبهات الشيطانية، كما روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا

---

(١) المقدمة: ص٤٩٠، مع تاريخه ابن خلدون.

وقد وصف ابن خلدون هذا الدليل بأنه أقرب الطرق والمآخذ، وقوله: (في مستقر العادة) هذا بناءً على مذهبه الأشعري في إنكار تأثير الأسباب، أما السلف فيثبتون تأثيرها مع كونها من قدر الله ـ تعالى ـ، فالله ـ تعالى ـ يفعل بها، لاعندها كما يقول الأشاعرة، وانظر نحو كلام ابن خلدون هذا أو قريبا منه في الفلسفة القرآنية للعقاد: ص١١٥، فقد ذكر من أدلة وجود الله ـ تعالى ـ في القرآن برهان الخلق، أو البرهان الكوني، وفحواه ـ كما ذكر ـ أن المتحركات لابد لها من محرك، والممكنات لابد لها من موجدٍ واجب الوجود.

بلغه فليستعذ بالله ولينته»[1]. وهو عند مسلم بلفظ: «لايزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلَق الله الخلق، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله»[2].

وفي بعض الروايات في غير الصحيحين: «فإن فعلتم فقولوا: الله قبل كل شيء، وهو كائن بعد كل شيء، وهو خالق كل شيء»[3].

وذكر شيخ الإسلام أن بعض أهل الكلام سُئل: لِمَ لمْ يبين النبي ﷺ البرهان المبين لفساد التسلسل والدور، وإنما أمر بالاستعاذة؟ فكان جوابه أن هذا مثل من عرض له كلب ينبح عليه ليؤذيه ويقطع عليه طريقه، فتارة يضربه بعصاه، وتارة يطلب من صاحب الكلب أن يزجره، فالبرهان هو الطريق الأول، وفيه صعوبة والاستعاذة بالله هو الثاني وهو أسهل.

وقد أنكر شيخ الإسلام كلا من السؤال والجواب غاية الإنكار، إذ بُنيا على أن وسواس التسلسل يندفع بطريقين؛ أحدهما: البرهان، والآخر: الاستعاذة، وأن النبي ﷺ إنما أمر بالثاني دون الأول، وقال: إن (هذا خطأ، بل النبي ﷺ أمر بطريقة البرهان حيث يؤمر بها، ودل على مجاميع البراهين التي يرجع إليها غاية نظر النظار، ودل من البراهين على ماهو فوق استنباط النظار، والذي أمر به في دفع هذا الوسواس ليس هو الاستعاذة فقط، بل أمر بالإيمان وأمر بالاستعاذة، وأمر بالانتهاء،

---

(١) الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، (٣/ ١١٩٤)، حديث رقم: (٣١٠٢).

(٢) الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، (١/ ١١١)، حديث رقم: (١٣٤).

(٣) انظر الأسماء والصفات للبيهقي: ص٢٤، ٢٥، وكتاب العظمة لأبي الشيخ: ١/ ٤١٣، ٤١٤، وصون المنطق للسيوطي: ص٤٥.

ولاطريق إلى نيل المطلوب من النجاة والسعادة إلا بما أمر به، لاطريق غير ذلك)[1] ثم بين ذلك من وجوه عدة، حاصلها:

أولاً ـ أن الشبهات القادحة في العلوم الضرورية لايمكن الجواب عنها بالبرهان، وأن غاية البرهان أن ينتهي إليها، فإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث، وإذا تبين هذا، فالوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لاتُزال بالبرهان، بل متى فكر العبد ونظر، ازداد ورودها على قلبه، وقد يغلب الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه، كما يعجز من حل الشبهة السوفسطائية، وهذا يزول بالاستعاذة بالله؛ فإن الله ـ تعالى ـ هو الذي يعيذ العبد، ويجيره من الشبهات المضلّة.

ثانيًا ـ أن النبي ﷺ لم يأمر بالاستعاذة وحدها، بل أمر العبد أن ينتهي عن ذلك مع الاستعاذة، إعلامًا منه بأن هذا السؤال هو نهاية الوسواس، فيجب الانتهاء عنه، ليس هو من البدايات التي يزيلها مابعدها، فإذا وصل العبد إلى غاية الغايات، ونهاية النهايات، وجب وقوفه، فإذا طلب بعد ذلك شيئا وجب أن ينتهي.

ثالثًا ـ أن النبي ﷺ أمر العبد أن يقول: «آمنت بالله»، وفي رواية: «ورسوله»، فهذا من باب دفع الضد الضار بالضد النافع، فإن هذا القول إيمان، وذكر الله يُدفع به مايضاده من الوسوسة القادحة في العلوم الضرورية الفطرية[2].

ويقول شيخ الإسلام في موضع آخر: (ومعلوم بضرورة العقل أن المحدَث لابد له من محدث، وأنه يمتنع تسلسل المحدِثات، بأن يكون للمحدِث محدِث، وللمحدِث محدِث، الى غير غاية، وهذا يسمى تسلسل المؤثرات والعلل والفاعلية، وهو ممتنع باتفاق العقلاء...

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٣/٣٠٨، ٣٠٩.

(٢) انظر هذه الوجوه في درء تعارض العقل والنقل: ٣/٣٠٩، ٣١٨.

ومعلوم أن المحدَث الواحد لايحدث إلا بمحدِث، فإذا كثرت الحوادث وتسلسلت، كان احتياجها إلى المحدِث أولى، وكلها محدَثات، فكلها محتاجة إلى محدِث، وذلك لايزول إلا بمحدِث لايحتاج إلى غيره، بل هو قديم أزلي بنفسه ـ سبحانه وتعالى ـ)[1].

وإذ قد تبين بطلان التسلسل في العلل، فينبغي التنبّه إلى أن انتهاء المحدثات إلى مُحدِث لايكون هو محدَثا، يلزم منه أن حدوثها مترتبة على أسبابها لم يكن من فعل تلك الأسباب استقلالاً، بل هو أيضًا من خلق الله وفعله بتلك الأسباب، وإنما كان خلقها وإحداثها أولاً مباشرًا مجردًا عن السبب، ثم صار خلقها وإحداثها بعد ذلك مرتبًا على أسبابٍ مخلوقة أيضًا، وهذا هو مضمون مارواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لاعدوى ولاصفر ولاهامة» فقال أعرابي: يارسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال رسول الله ﷺ: «فمن أعدى الأول؟»[2].

قال ابن حجر: (وهو جواب في غاية البلاغة والرشاقة، وحاصله: من أين جاء الجرب للذي أعدى بزعمهم؟ فإن أجيب: من بعير آخر، لزم التسلسل، أو سبب آخر فليفصح به، فإن أجيب بأن الذي فعله في الأول هو الذي فعله في الثاني ثبت المدَّعى، وهو أن الذي فعل بالجميع ذلك هو الخالق القادر على كل شيء، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ)[3].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٤٥.

(٢) الصحيح، كتاب الطب، باب لاصفر، (٥/ ٢١٦١)، حديث رقم (٥٣٨٧).
والهامة: البومة، كانوا يتشاءمون بها، وقيل غير ذلك. وصفر: الشهر، كانوا يتشاءمون من السفر فيه، أو هو داء يأخذ البطن، كما جزم الإمام البخاري. انظر فتح الباري لابن حجر: ١٠/ ١٨١، ٢٥٢.

(٣) فتح الباري: ١٠/ ٢٥٢، وانظر بدائع الفوائد لابن القيم: ٤/ ١٢٧.

ثانيًا ـ دلالة العناية[1]

ويراد بالعناية مانشهده ونحسّ به من الاعتناء المقصود بهذه المخلوقات عمومًا، وبالإنسان على وجه الخصوص، والذي يتجلى فيما نراه وندركه من موافقة هذه الموجودات للإنسان أتم الموافقة، وكذلك في موافقة هذه الموجودات بعضها لبعض، وذلك لايكون قطعًا إلا من قِبل فاعلٍ قاصدٍ لذلك مريد[2].

فهذه الدلالة تنبني على أصلين:

الأول ـ العلم بهذه الموافقة.

الثاني ـ أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد مريد[3].

فأما الأصل الأول فيُتحصل ـ كما يقول ابن رشد ـ باعتبار موافقة الموجودات للإنسان، كالليل والنهار، والشمس والقمر، والأزمنة الأربعة، والأمطار والمياه بأنواعها، والرياح والأرض، وكثير من الحيوان والنبات، وكذلك أعضاء البدن والحيوان، وجزئيات كثيرة لاتحصى، ومعرفة منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس، وكلما كان الوقوف على منافع الموجودات وحِكَمها والغاية التي وجدت لأجلها أطول وأكثر تأملاً، كان الوقوف على هذه الدلالة أتم.

وأما في الأصل الثاني: فهو قضية بدهيّة فطرية، لايجحدها إلا مكابر، وبذلك تكون دلالته في غاية القوة والحجّية، حيث قامت على

---

(١) مصدر عنى يعني عناية، بمعنى قصد. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١٤٦/٤.

(٢) انظر مناهج الأدلة: ص٦٠.

(٣) المرجع السابق: ص٦٠.

معلومات أولية بدهية، ومشاهدات حسيّة في متناول الجميع.

كما أنها تكون قد جمعت بين القطعية في الدلالة، والوضوح والبساطة للخاصة والعامه[1].

يقول ابن رشد شارحًا دليل العناية هذا: (... وذلك كما أن الإنسان إذا نظر إلى شيء محسوس، فرآه قد وُضع بشكل ما، وقدْر ما، ووضْع ما، موافقٍ في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس، والغاية المطلوبة، ـ حتى يعترف أنه لو وُجد بغير ذلك الشكل، وبغيرِ ذلك الوضع، أو بغير ذلك القدر، لم توجد فيه تلك المنفعة ـ علم على القطع أن لذلك الشيء صانعا صنعه، ولذلك وافق شكلُه ووضعه وقدْره تلك المنفعة، وأنه ليس يمكن أن تكون موافقةُ اجتماع تلك الاشياء لوجود المنفعة بالاتفاق)[2].

ويضرب ابن رشد لذلك مثالاً برجل رأى حجرًا على الأرض، على صفة يتأتى منها الجلوس وضعًا وقدرًا، فإنه يعلم يقينا بأنه إنما صنعه صانع، ومتى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس، فإنه يقطع بأن وجوده في ذلك المكان، وعلى صفة ما، إنما هو بالاتفاق، ثم يقول ابن رشد: (وكذلك الأمر في العالم كله، فإنه إذا نظر الإنسان إلى مافيه من الشمس والقمر، وسائر الكواكب، التي هي سبب الأزمنة الأربعة ـ يعني فصول السنة ـ وسبب الليل والنهار، وسبب الأمطار والمياه والرياح، وسبب عمارة أجزاء الأرض، ووجود الناس، وسائر الكائنات من الحيوانات البرية، وكذلك الماء، موافقا للحيوانات المائية، والهواء للحيوانات الطائرة، وأنه لو اختل شيء من هذه الحلْقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التي هٰهنا، علم على القطع أنه ليس

---

(١) مناهج الأدلة: ص٥٩.

(٢) المرجع السابق: ص٦٠.

يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق، بل ذلك من قاصد قصده، ومريد أراده، وهو الله ـ عز وجل ـ، وعلم على القطع أن العالم مصنوع، وذلك أنه يعلم ضرورة أنه لم يمكن أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده عن غير صانع، بل عن الاتفاق)[1].

ودليل العناية هذا، ودليل الاختراع قبله، هما دليلا الشرع على وجود الله ـ تعالى ـ في رأي ابن رشد، إضافة إلى المعرفة الفطرية[2].

والآيات القرآنية المنبهة على وجود الله ـ تعالى ـ لاتخرج في نظره عن هٰذين الجنسين من الأدلة[3]، وهي عنده ثلاثة أنواع:

١ ـ نوع ينبه على العناية فحسب، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾... الآيات[4]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾[5].

٢ ـ نوع ينبه على الاختراع فحسب، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾[6]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ الآيات[7].

٣ ـ ونوع ينبه على الدلالتين معًا، وهي أكثر الآيات الواردة في هذا المعنى[8].

وقد نبه ابن رشد بعد تقريره هذين الدليلين إلى أن هذه الطريقة

---

(١) مناهج الأدله: ص٩٨.
(٢) انظر مناهج الأدلة: ص٦١، ٦٣.
(٣) المرجع السابق: ص٦١.
(٤) سورة النبأ: ٦ ـ ١٦.
(٥) سورة الفرقان: ٦١.
(٦) سورة الطارق: ٥.
(٧) سورة الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.
(٨) انظر مناهج الأدلة: ص٦١.

في الاستدلال على وجود الله ـ تعالى ـ هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس فيها إلى معرفة وجوده، ونبههم عليه بما جعل في فطرهم من إدراك هذا المعنى[1].

كما نبه إلى أنها طريقة الخواص، كما هي طريقة الجمهور، وإنما الاختلاف بينهما في أمرين:

الأول ـ التفصيل، فبينما يقف الجمهور عند المعرفة الحسية بما يدل على العناية والاختراع، لايتجاوزون ذلك، يزيد العلماء على ذلك بمعرفة مايُدرك بالبرهان، من العناية والاختراع، كمعرفة منافع أعضاء الإنسان والحيوان.

الثاني ـ التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه، ومثال ذلك: النظر في المصنوعات البشرية، فإن الجمهور إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات، وأن لها صانعا، وأما العلماء فيفضلون بزيادة علم بصنعتها، وبوجه الحكمة فيها، مما يلزم منه أن يكونوا أعلم بالصانع من جهة صنعته من الجمهور، الذين لايعلمون إلا أنها مصنوعة فقط[2].

وما ذكره ابن رشد من الاختلاف بين الخواص والعوام في كيفية النظر في دلالتي الاختراع والعناية حق، إلا أن هٰهنا أمرًا يجدر التنبيه إليه، وهو أنا إذا سلّمنا بأن ميزة الخواص على العوام هي التفصيل والكثرة والتعمق في إدراك الحِكم والفوائد والغايات، فهل الأنبياء والأولياء وسادات المؤمنين، من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين، الذين بلغوا الدرجات العالية في كمال الإيمان، هل هم بهذا الاعتبار من الخواص أم من العوام؟.

فإنا نعلم يقينا أن الغالب عليهم أنهم لم يعانوا شيئا من علم

---

(١) المرجع السابق: ص٦٢.

(٢) المرجع السابق: ص٦٣ ـ ٦٤.

الطبائعيين، من الحكماء والأطباء والفلكيين، ولم يتكلفوا شيئا من ذلك، وكذلك بالنسبة للعلوم العصرية الحديثة، والمكتشفات المتأخرة، نقطع أنهم ماعرفوا عنها شيئا، فهل نقول: فاتهم فضل ذلك؛ إذْ لم يتعمقوا أو يتعرفوا على تفاصيل الحِكم في المخلوقات؟ أم نقول: إن القدْر المطلوب لرسوخ اليقين في القلوب قد وفّى القرآن بالإشارة إليه، وأتى فيه بمالا مزيد عليه، أما ما وراء ذلك من التعمق والتفصيل، فليس مما يتوقف عليه زيادة إيمان ويقين، نعم؛ يتوقف عليه زيادة معرفة بالصانع من جهة صنعته كما قال ابن رشد، ولقد أحسن بذكر هذا القيد، ولكن مطلق المعرفة بالخالق، غيرُ الإيمان الشرعي، الممدوح صاحبه في القرآن، ولعل من أعظم مايشهد لهذا الذي قلناه أن أكثر الناس اليوم علمًا بتفاصيل ودقائق الصنائع، وخصائص المخلوقات وحِكمِها هم من الكفار، إما كتابيين، أو ملاحدة أو وثنيين، وهؤلاء قصاراهم أن يثبتوا وجود الصانع ويقروا به، ومع ذلك لايصح أن يُثبَتَ لهم إيمان يستحقون عليه المدح.

والذي دعا هنا إلى التنبيه إلى هذا الأمر: ما وقع قديما من كثير من أهل الكلام، ولايزال يقع من كثير ممن يؤلفون في العقائد، من تسمية مجرد إثبات الصانع إيمانا، وهو خطأ فاحش، ناتج عن الجهل بحقيقة الإيمان في الكتاب والسنّة واعتقاد السلف[1].

وقد اعتمدت على ابن رشد في تقرير دلالة العناية؛ لأنه قد وافق في ذلك منهج السلف إجمالاً في طريق إثبات وجود الله ـ تعالى ـ، وتجرد لبيان ماقصد الشرع بيانه من طرق معرفة الله ـ تعالى ـ ، كما أبلى بلاءً حسنا في نقد منهج المتكلمين العقيم في الاستدلال لهذه

---

(١) من أوضح الأمثلة لذلك: كتاب «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» فهو على ظرافته لم يبخل بوصف الإيمان على أحد من مثبتي الصانع.

القضية[1]، وكان له سبق ـ فيما أعلم ـ في تقرير دلالتي الاختراع والعناية على نحو ماسبق، وإن كان مسبوقا في الإشارة عمومًا إلى أدلة القرآن العقلية على وجود الله ـ تعالى ـ، كما في كلام أبي سليمان الخطابي وغيره[2].

ومع ذلك فقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية ابنَ رشد مقصّرًا في حق أدلة القرآن، رغم موافقته له على ماقرر من أدلة، وتحسينه لها في الجملة[3].

يقول ابن تيمية: (فهذا الرجل ـ يعني ابن رشد ـ مع أنه من أعيان الفلاسفة، المعظمين لطريقتهم، المعتنين بطريقة الفلاسفة المشائين، كأرسطو[4] وأتباعه، بيّن أن الأدلة العقلية الدالة على إثبات الصانع مستغنية عما أحدثه المعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم من طريقة الأعراض ونحوها، وأن الطرق الشرعية التي جاء بها القرآن هي طرق برهانية تفيد العلم للعامة والخاصة، والخاصة عنده يدخل فيهم الفلاسفة، والطرق التي لأولئك هي مع طولها وصعوبتها لاتفيد العلم لا للعامة ولا للخاصة.

هذا مع أنه لم يقدر القرآن قدره، ولم يستوعب أنواع الطرق التي في القرآن، فإن القرآن قد اشتمل على بيان المطالب الإلـٰهية بأنواع من

---

(١) انظر مناهج الأدلة: ص٤٩ ومابعدها.

(٢) انظر بيان تلبيس الجهمية: ١/١٧٧، وموقف ابن حزم من الإلـٰهيات للدكتور أحمد الحمد: ص١٣٤.

(٣) انظر بيان تلبيس الجهمية: ١/١٧٦.

(٤) هو أرسطو طاليس ـ أي تام الفضيلة ـ بن نيقوماخس الفيثاغوري الجهراشني، تلميذ أفلاطون، إليه انتهت فلسفة اليونانيين، وهو خاتمة علمائهم، وسيد حكمائهم، وهو واضع المنطق اليوناني، لذا سمّي بالمعلم الأول، توفي سنة ٣٢٢ قبل الميلاد، وأتباعه يسمّون: المشاؤون، وفلسفته تسمى المشائية القديمة، نسبة إلى طريقته في التدريس وهو يطوف في الرواق وقد أحاط به تلامذته. انظر إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي: ص٢١، ٢٢، والموسوعة العربية للفلسفة: ٢/ ١٢٧٣، ١٢٧٤.

الطرق، وأكمل الطرق)[1].

هذا، ويمكن تلخيص الاستدراكات على كلام ابن رشد عن دلالتي الخلق والعناية في النقاط التالية:

١ ـ عدم إعطاء المعرفة الفطرية حقها من الأهمية والحجية، فابن رشد وإن ألمح إلى الفطرة بقوله بعد ذكر الاختراع والعناية: (فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس فيها إلى معرفة وجوده، ونبههم عليه بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى، وإلى هذه الفطرة الأولى المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾)[2].

إلا أن هذا ليس بصريح في كفاية المعرفة الفطرية في تحصيل أصل اليقين، والإقرار بوجود الله ـ تعالى ـ دون الحاجة إلى نظر، وغاية مايدل عليه كلامه: التسليم باستناد الأدلة العقلية التي ذكرها ـ الاختراع والعناية ـ إلى العلوم الفطرية البدهية، كالعلم بحاجة الأثر إلى مؤثر، ونحو ذلك، وهذا إنما هو جزء من المعرفة الفطرية، لايشمل كلّ ماقرره الشرع في آيات الفطرة وأحاديثها التي سبقت الإشارة إليها.

وقد صرح ابن رشد بإيجاب النظر، وعدم كفاية المعرفة الفطرية، موافقا في ذلك المتكلمين، كما في قوله: (وليس لقائل أن يقول: إنه لو كان ذلك واجبا على كل من آمن بالله ـ أعني لايصح إيمانه إلا من قبل وقوعه على هذه الأدلة ـ لكان النبي ﷺ لايدعو أحدًا إلى الإسلام إلا عرض عليه هذه الأمثلة؛ فإن العرب كلها تعترف بوجود الباري)[3].

٢ ـ حصر أدلة الشرع في العناية والاختراع، وقد انتقد ابنُ تيمية

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٣٣٣.

(٢) مناهج الأدلة: ص٦٢، ٦٣.

(٣) مناهج الأدلة: ص٤٧.

ابن رشد في هذا كما مرّ في كلامه السابق، وابن تيمية يرى أن الطرق الشرعية التي نبه القرآن عليها لإثبات وجود الله ـ تعالى ـ كثيرة جدًا، لاتكاد تنحصر[1].

ويمكن الاعتذار عن ابن رشد في هذا الحصر بأنه إنما نبه على جنس الأدلة، ولم يتطرق إلى تعيين الأفراد، بل إنه صرّح كما مر في كلامه بدخول أفراد في هٰذين الجنسين لاحصر لها.

إلا أن هذا الاعتذار إنما ينفعه بالنسبة لما استُدرك عليه من الأدلة التي يمكن ردّها إلى دليلي الاختراع والعناية، كدليل حدوث الذوات وصفاتها، ودليل العجز والافتقار، أما ما سوى ذلك كدلالة الفطرة السالفة، وكدلالة العاقبة الحسنى للأنبياء وأتباعهم، والسوآى لمخالفيهم، وظهور دينهم على سائر الأديان، وكدلالة المعجزات والكرامات وآيات الأنبياء، فإن لها دلالة على وجود الله ـ تعالى ـ كما سيأتي تقريره[2]، فهذه كلها لايمكن الاعتذار عن ابن رشد في إهمالها.

٣ ـ قصر دلالة بعض الآيات القرآنية على العناية فقط، والصحيح أن كل مادل على العناية دل على الاختراع من باب الالتزام[3]، فلا وجه لقصر دلالتها على العناية. وابن رشد نفسه لما شرح آيات سورة النبأ التي جعلها مقصورة الدلالة على العناية[4]، قال في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾: (فعبر بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها)[5].

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٦٦ ومابعدها.
(٢) انظر ص: ٣٠٥ ومابعدها.
(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٣٣١.
(٤) انظر مناهج الأدلة: ص٦٢.
(٥) مناهج الأدلة: ص١٠٠.

ثالثاً ـ دلالة الإتقان والتقدير

وقد تسمى هذه الدلالة: دلالة القصد، أو الغاية، أو النظام[1]، وهي وإن أمكن إدراجها ضمن دلالة العناية، إلا أن في إفرادها بالذكر زيادة تنبيه وتفصيل، استدعته أهميتها البالغة، ودلالة العناية جنس عظيم يندرج تحته أنواع كثيرة من الأدلة، لايحسن إغفالها.

وقد أشار القرآن العزيز إلى هذه الدلالة في مواضع كثيرة، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[2]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾[5]، وغير ذلك من الآيات المنبهة إلى ما وجد عليه العالم من نظام دقيق، وإحكام مقصود، لايمكن بحال أن يكون من غير مكون، ولا أن يستمر ويدوم دون خلل من غير مدبّر مقدّر.

وقد تأتي الإشارة القرآنية إلى وجود ذلك في جملة المخلوقات، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[6]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَخَلَقَ

---

(١) انظر الفلسفة القرآنية للعقاد: ص١١٥ ومابعدها.

(٢) سورة الملك: ٣، والتفاوت: الاختلاف في الأوصاف. انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص٣٨٦.

(٣) سورة النمل: ٨٨.

(٤) سورة السجدة: ٧.

(٥) سورة الذاريات: ٧، قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء، انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٤٤، وأصل الحبك: الإحكام، انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص١٠٦ ومعجم مقاييس اللغة: ٢/ ١٣٠.

(٦) سورة القمر: ٤٩.

﴿كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾[2] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[3] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾[4].

كما قد يأتي التنبيه على ذلك أحيانا في بعض المخلوقات، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾[5]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾[6]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[7].

فهذه الآيات وأمثالها تلفت نظر المستدل إلى دلالة المخلوقات على باريها من خلال مايشاهد فيها من الانضباط والالتزام التام بنظام

---

(١) سورة الفرقان: ٢، قال الزمخشري: (المعنى: أنه أحدث كل شيء مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدره وهيّأه لما يصلح له). الكشاف: ٣/ ٨٨، وقال ابن عطية: (تقدير الأشياء هو حدها بالأمكنة والأزمان والمقادير والمصلحة والإتقان). المحرر الوجيز: ٤/ ١٩٩.

(٢) سورة الرعد: ٨.

(٣) سورة الأعلى: ٢، ٣.

(٤) سورة الطلاق: ٣.

(٥) سورة الحجر: ١٩، وقد ذكر الرازي في تفسير (موزون) عدة أوجه هي: ١ ـ أنه بقدر الحاجة. ٢ ـ أنه موزون التركيب والمقادير، من الأرض، ومن السماء، ومن الهواء، وتأثير الشمس في الحر والبرد؛ فإنه ـ تعالى ـ وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع. ٣ ـ أي: متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة. ٤ ـ الأشياء التي توزن. انظر مفاتيح الغيب: ١٩/ ١٧٢، وقد رجح ابن جرير في تفسيره قولاً يشمل الثلاثة الأول: ١٤/ ١٥.

(٦) سورة الشورى: ٢٧.

(٧) سورة المؤمنون: ١٨.

في غاية الدقة، ما كان له أن يوجد على هذه الحال دون قيّم ومدبر، وفي ذلك أعظم دليل على بطلان الخرافة القائلة بحدوث العوالم عن طريق المصادفة.

ولاتزال الآيات القرآنية تنبه إلى هذه الدلالة وتشير إليها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[2]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3].

والآيات المنبهة إلى هذه الدلالة كثيرة جدًا.

ومن الوجوه اللطيفه التي يعبر بها عن دليل الإتقان هذا: ماذكره بعض المتكلمين من الاستدلال ببقاء الكائنات على رقيّها، في حين أن الصناعات البشرية تأخذ في الترقّي، وما ذلك إلا لارتباط ذلك بترقي صانعيها في العلم، فبقاء العالم على كمال صنعته وإتقانها، وعدمُ تدرجه في ذلك من النقص نحو الكمال، يدل على كمال صانعه وأزليته وربوبيته[4].

والذي أخشاه من هذا الوجه مايُستشعر فيه من انسجام مع ما

---

(١) سورة يس: ٣٧ ـ ٤٠.

(٢) سورة الأنعام: ٩٦.

(٣) سورة المرسلات: ٢٠ـ٢٣، والشاهد منها قوله (فقدّرنا) بالتشديد على قراءة نافع والكسائي. انظر السبعة لابن مجاهد: ص٦٦٦.

(٤) انظر دلائل التوحيد للقاسمي: ص٥٤.

اشتهر من قول أبي حامد الغزالي: (ليس في الإمكان أبدع مما كان)، بمعنى أنه غير داخل في القدرة الإلـٰهية خلق العالم أحسن مما هو عليه الآن، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا[1].

(١) انظر شرح جوهرة التوحيد للبيجوري: ص٤٠.

obeikandl.com

رابعًا ـ دلالة التسخير[1] والتدبير

مرجع هذه الدلالة إلى العناية، والفرق بينها وبين الدلالة السابقة: أنها تدل على الخالق من جهة الخضوع الكوني العام لسيطرةٍ قاهرة تامةٍ، لاتملك الخروج عليها ذرة واحدة، وتتمثل هذه السيطرة في السنن والنواميس الكونية الدقيقة التي تسير عليها العوالم دونما تخلف، فهي دلالة من جهة القهر، لها تعلق بصفات القدرة والجبروت للخالق ـ جل وعلا ـ، بينما تتعلق دلالة الإحكام والإتقان بصفات العلم والحكمة، واللطف والخبرة.

وإذا نظرنا إلى هذا العالم وجدناه بجميع أجزائه مقهورًا مسيّرًا مدبّرًا مسخرًا، تظهر فيه آثار القهر والاستعلاء لمسيّره، وتتجلى فيه شواهد القدرة لمخضعه ومذلّله، بما لايدع مجالاً للشك في وجود مدبّر يدبّره، وقدير يمسك بمقاليده، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقد جاء ضمن الأسئلة التقريرية التي أمر الله نبيه ﷺ أن يحتج بها على الكفار: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[3]، حيث إن الحس والفطرة يشهدان بضرورة مدبر لهذا العالم، فكان إقرار الكفار بذلك.

وإذا تأملنا الآيات القرآنية المنبهة إلى هذه الدلالة وجدنا بعضها

---

(١) قال الراغب: (التسخير: سياقة إلى الغرض المختص قهرًا). المفردات: ص٢٢٧.

(٢) سورة الشورى: ١٢.

(٣) سورة يونس: ٣١.

يشير إلى التسخير المطلق للكائنات، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾(١)، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾(٢)، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣)، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾(٤)، وبعضها الآخر ينبه إلى تسخير المخلوقات للإنسان، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾(٥) وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾(٦)، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾(٧)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾(٨)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٩)، وقال في تسخير الأنعام: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾(١٠) ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤.
(٢) سورة فاطر: ١٣.
(٣) سورة البقرة: ١٦٤.
(٤) سورة النحل: ٧٩.
(٥) سورة إبراهيم: ٣٢، ٣٣.
(٦) سورة النحل: ١٢.
(٧) سورة النحل: ١٤.
(٨) سورة الحج: ٦٥.
(٩) سورة لقمان: ٢٠.
(١٠) سورة الحج: ٣٦.

رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1] وقال في الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[2]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾﴾[3] وقال: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[4].

ومن الإشارات اللطيفة إلى دلالة التدبير في المخلوقات على الخالق ـ جلّ وعلا ـ: قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[5].

فإن هذا استدلال بماهو مشاهد محسوس من اختلاف الناس في سعة الرزق وضيقه، ولابد لذلك من سبب، ولايمكن أن يكون ذلك راجعا لمحض عقل الرجل وجهله؛ وإلا لما رأينا العاقل القادر في أشدّ الضيق، والجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة، كما لايمكن أن يكون لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك؛ لأنا نرى الساعة الواحدة يولد فيها الملك الكبير القاهر، وغيره من ضعفة الناس والحيوانات، بل والنبات، فلا يمكن بحال أن يكون الطالع هو المؤثر في ذلك، وإذ بطلت هذه الأقسام، فلابد لذلك من مؤثر قادر عالم حكيم، وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ[6].

---

(١) سورة يس: ٧٢، ٧٣.
(٢) سورة الملك: ١٥.
(٣) سورة النبأ: ٦.
(٤) سورة الذاريات: ٤٨.
(٥) سورة الزمر: ٥٢.
(٦) انظر مفاتيح الغيب للرازي: ٢٦/ ٢٨٩.

خامسًا ـ دلالة التخصيص

وتنص هذه الدلالة على أنه يجوز عقلا أن يكون كل جزء من العالم على خلاف صورته وصفته وحالته التي هو عليها الآن، فكونه على هذه الصورة التي هو عليها الآن يحتاج إلى مخصص يخصصها بالوجود، دون غيرها من الصفات والأحوال الممكنة الأخرى[1].

وتقرير شرعية هذه الدلالة يحتاج إلى شيء من التفصيل والدقة، وذلك أن بعض المتكلمين كالجويني قد احتفَوا بهذه الدلالة وأولوها اهتمامًا كبيرًا[2]، إلا أنهم ساقوها في صورة تتلاءم مع مذهبهم الأشعري، في نفي التعليل في أفعال الله ـ تعالى ـ، المفضي إلى إنكار حقيقة الحكمة فيها، مما حدا ابن رشد إلى ردّ هذه الدلالة وإنكار شرعيتها، متعللا باستلزامها هذا المحذور[3].

وقد انبرى ابن تيمية لبيان شرعية هذا الدليل، وأن له أصلاً في القرآن، وأنه لايلزم من الأخذ به وتقريره على المنهج الشرعي إنكارٌ لحكمة الله ـ تعالى ـ في تخصيص الموجودات بصفاتها.

يقول ابن تيمية: (ومن سلك طريقة أبي المعالي في هذا الدليل لايحتاج إلى أن ينفي الحكمة، بل يمكنه إذا أثبت الحكمة المرادة أن يثبت الإرادة بطريق الأولى، وحينئذ فالعالم بما فيه من تخصيصه ببعض

---

(١) انظر «بين ابن تيمية وابن رشد في الإلٰهيات» لمنيف العتيبي: ٣٥٨/١ ومابعدها، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى.

(٢) انظر العقيدة النظامية في الأركان الإسلاميه للجويني: ص١٦، والإرشاد له: ص٢٨.

(٣) انظر مناهج الأدلة لابن رشد: ص٥٥، ٥٦.

الوجوه دون بعض دال على مشيئة فاعله، وعلى حكمته أيضًا ورحمته، المتضمنة لنفعه وإحسانه إلى خلقه.

وإذا كان كذلك فقولنا: إن ماسوى هذا الوجه جائز، يراد به أنه جائز ممكن في نفسه، وأن الرب قادر على غير هذا الوجه، كما هو قادر عليه، وذلك لاينافي أن تكون المشيئة والحكمة خصصت بعض الممكنات المقدورات دون بعض)[1].

أما المستند الشرعي لهذه الدلالة فيكمن في الآيات القرآنية التي تدل على إمكان تحوّل المخلوقات إلى مقادير مضادة تمامًا لما هي عليه الآن[2].

مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ الآيات إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[4].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[5]، والآيات المتضمنة لهذه الدلالة كثيرة[6]، تنص على أن الصفات التي وُجدت عليها الموجودات متعلقةٌ بمشيئة الله ـ تعالى ـ، ولو أراد لجعلها على حال مغايرة لما هي عليه.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ١١١ ـ ١١٢.
(٢) انظر بين ابن تيمية وابن رشد في الإلهيات لمنيف العتيبي: ١/ ٣٦٢.
(٣) سورة الفرقان: ٤٥.
(٤) سورة الواقعة: ٦٠ ـ ٧٠.
(٥) سورة القصص: ٧١، ٧٢.
(٦) انظر مثلاً: سورة الانفطار: ٨، الملك: ١٦، ١٧، ٣٠.

وبعد، فهذه على وجه الإجمال مظاهر دلالة المخلوقات على خالقها، ولعل هناك مظاهر أخرى أكثر تفصيلاً، إلا أن الغالب أنها لاتخرج عمّا سبق ذكره، وقد يتجلى للقارىء شيء منها في المطلب التالي، حيث يكون الحديث عن صور الاستدلال بالمخلوقات على الخالق في القرآن الكريم.

obeikandl.com

المطلب الثاني
صور الاستدلال بالمخلوقات على الخالق
الصورة الأولى
خلق الإنسان

إن الاستدلال بخلق الإنسان قد لقي عناية خاصة وبالغة في القرآن، قد لاتكون لغيره من أنواع الاستدلال بالمخلوقات، التي قد تفوق خلق الإنسان قدرًا وأهمية، ولعل من أبلغ الأدلة على ذلك: أنه ذُكر في أول آية أنزلها الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[1]، فذكر الخلق مطلقا، ثم كان التخصيص بالذكر من نصيب خلق الإنسان.

ومن حكمة هذا التخصيص أن الناس جميعا مشتركون في مباشرة هذه الدلالة، فالإنسان هو المستدِل، وفي الوقت ذاته هو الدليل والبرهان والآية، فهذه الدلالة يعلمها الإنسان من نفسه، ويذكرها كلما تفكر في خلقه، ومن يراه من بني جنسه[2].

كما وإن في قرب هذه الدلالة من كل إنسان ماقد يسدّ بعض القصور الحاصل منه في النظر في ملكوت السموات والأرض، حيث إن في بدن الإنسان من آثار الصنعة مايماثل نظيره في سائر المخلوقات.

وإذا كان الاستدلال بخلق الإنسان على الربوبية بهذه المثابة، فلا عجب إذًا أن جاءت الدعوة إلى التبصّر في الأنفس بأسلوب الإنكار على

---

(١) سورة العلق: ١، ٢.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/ ٢٦٢، ٢٦٣.

من ترك ذلك، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[1]، بل قد صرح بعض العلماء بوجوب النظر في خلق الإنسان، أخذًا من قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾[2]. [3]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها، وهي عقلية: فإن نفس كون الإنسان حادثا بعد أن لم يكن، ومولودًا ومخلوقا من نطفة، ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، سواء أخبر به الرسول أم لم يخبر، لكن الرسول أَمر أن يُستدل به، ودل به، وبينه واحتج به، فهو دليل شرعي، لأن الشارع استدل به، وأمر أن يُستدل به، وهو عقلي؛ لأنه بالعقل تعلم صحته)[4].

لقد جاء في القرآن ذكر خلق الإنسان في كثير من آياته، مجمَلاً تارة، ومفصَّلاً تارات، تنبيها إلى دلائل القدرة والحكمة، والعلم والعظمة، والكمال والجلال للخالق المبدع، فتارة بذكر أطوار خلقه، وتفصيل القول فيها بما يبهر العقول، ويلجئها إلى التسليم بالربوبية لصاحب هذا الصنع والتقدير، وتارة بالتنبيه إلى حسن صورته، وتسوية خِلقته، وعدْلها، وتارة بالتنبيه إلى ماركّبه فيه من جوارح وحواس، وتارة بذكر ماصنف إليه البشر من ألوان وألسنة وأجناس، إلى غير ذلك من مجالات التفكر والاعتبار، والتأمل والادكار.

---

(١) سورة الذاريات: ٢١.

(٢) سورة الطارق: ٥.

(٣) انظر أضواء البيان للشنقيطي: ٥/٧٧٨.

(٤) النبوات: ص٧١، ٧٢.

ولعل أكثر مايلفت النظر في ذكر دلالة خلق الإنسان في القرآن، كثرة الاستدلال بأطوار خلقه، ومراحل نشأته وحياته.

فقد جاء ذكر هذه الأطوار مجملاً في عدة آيات، مفصلاً في أكثر منها، فمن مواضع إجمالها قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾[1] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾[2].

فتأمل كيف جُعل التخليق في بطون الأمهات، وما سبقه من الدلائل في الآية الأولى، دليلا على ربوبية الله ـ تعالى ـ، وانفراده بالملك واستحقاق الإلهية، وكيف جاء التعجب من الانصراف عن مقتضى هذا البرهان القاطع، وما ذلك إلا لشدة وضوحه وجلائه.

وكيف جعل نوح ـ عليه السلام ـ في الآية الثانية ـ ذلك التخليق والتطوير مقتضيا لتوقير الله ـ جل وعلا ـ.

أما تفصيل ذلك، فقد جاء في عدة سور من القرآن مقتضبًا ومبسوطا، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ[3] لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن

---

(١) سورة الزمر: ٦.

(٢) سورة نوح: ١٣، ١٤.

(٣) تعددت أقوال العلماء في المراد بذلك، ولعل أظهرها أن معنى مخلقة: تامة، وغير مخلقة: غير تامة، فيتبع ذلك التفاوتَ تفاوتُ الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم. انظر أضواء البيان للشنقيطي: ٥٧/ ٢١، ٢٢. وسيأتي بيان معنى النطفة والعلقة والمضغة بعد قليل.

﴿كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾[1] ومع أن هذه الآية مسوقة أصلاً لإثبات البعث، فإنها لم تخلُ من إشارة إلى دلالة الخلق على الله ـ جل وعلا ـ، وإن كان المراد الدلالة على تفرده باستحقاق الإلـهية، كما هو شائع في القرآن، وكما يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ في آخر السورة نفسها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[2]، إلا أن الدلالة على وجود الله ـ تعالى ـ وربوبيته في الآية هي من باب دلالة التضمن، ومن باب الأولى، كما سبق أن تقرر[3].

وقد قال البيضاوي: («ذلك» إشارة إلى ماذكر من خلق الإنسان . . . «بأن الله هو الحق» أي بسبب أنه الثابت في نفسه، الذي به تتحقق الأشياء)[4].

وقال ابن عاشور[5]: (ويجوز أن تكون الباء للملابسة، أي: كان ذلك الخلق وذلك الإنبات البهيج ملابسًا لحقية إلـهية الله، وهذه الملابسة ملابسة الدليل لمدلوله، وهذا أرشق من حمل الباء على معنى السببية، وهو أجمع لوجوه الاستدلال، . . . ووجه كون هذه الأمور الخمسة المعدودة في هذه الآية ملابسة لأحوال خلق الإنسان وأحوال إحياء الأرض: أن تلك الأحوال دالة على هذه الأمور الخمسة: إما بدلالة المسبب على

---

(١) سورة الحج: ٥، ٦.

(٢) سورة الحج: ٦٢.

(٣) انظر ص: ٢٠٠.

(٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٦/ ٢٨٤، وقد تعقبه الخفاجي صاحب الحاشية بأن ما ذكره فيه تكلف وبعد، واستظهر أن الإشارة في قوله ـ تعالى ـ (ذلك) إنما هي إلى البعث المستدل عليه بخلق الإنسان. وانظر فتح القدير للشوكاني: ٣/ ٤٣٧.

(٥) سبقت ترجمته في ص: ١٥٥.

السبب، بالنسبة إلى وجود الله وإلى ثبوت قدرته على كل شيء... الخ)[1].

ولقد ذكر الله ـ تعالى ـ تفصيل هذا الدليل في مواضع أخر في غير سياق إثبات البعث، فقال ـ تعالى ـ في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ[2] مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً[3] فِى قَرَارٍ[4] مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً[5] فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً[6] فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ[7] فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾[8]﴾[9].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) السُّلالة: فُعالة من سللت الشيء من الشيء إذا استخرجته منه، وهذه الصيغة تدل على القلّة، والمراد هنا خلق آدم ـ عليه السلام ـ من تراب. انظر أضواء البيان: ٥/ ٧٧٧، وكذلك كل ذكر لخلق الناس من تراب في القرآن فالتحقيق أن المراد به هذا. انظر أضواء البيان: ٥/ ٢٠.

(٣) النطفة في اللغة: الماء القليل الصافي، والمراد بها هنا المنيّ، ومني الرجل داخل باتفاق، وفي تناول اللفظ لمني المرأة خلاف، ويدل على دخوله قوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] أي أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة. ومن لايرى دخوله يفسر الأمشاج بأخلاط من الدم. انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص٤٦٩، ٤٩٦، وأضواء البيان: ٤/ ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٤) وهو رحم المرأة.

(٥) العلق: الدم الجامد، والعلقة: القطعة منه، انظر المفردات في غريب القرآن: ص٣٤٣، وأضواء البيان للشنقيطي: ٥/ ٢١، قال ابن فارس: (وقياسه صحيح؛ لأنه يعلق بالشيء). معجم مقاييس اللغة: ٤/ ١٢٥.

(٦) وهي اللحمة الصغيرة، سميت بذلك؛ لأنها بقدر مايمضغ. انظر القرطين لابن مطرف: ٢/ ٣٢.

(٧) معنى ذلك أنه ـ تعالى ـ نفخ فيه الروح، وجعله سميعا بصيرًا، واستكمل خلقه، وجعله بشرًا سويا، هذا حاصل أقوال المفسرين في ذلك، انظر تفسير ابن جرير الطبري: ١٨/ ٩ ـ ١١.

(٨) أي المقدرين، والعرب تطلق الخلق وتريد التقدير. انظر أضواء البيان: ٥/ ٨١٧.

(٩) سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

وقد ذُكر هنا أولاً خلق آدم، في حين لم يُذكر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[1]، وفي ذلك نكتة مهمة، وهي أن آية العلق هذه مسوقة لإثبات الخالق والنبوة، فلم يذكر فيها ماتكون النبوة طريق العلم به؛ لأن الاستدلال إنما يكون بمقدمات يعلمها المستدل، ولما كان الناس جميعهم يعلمون أن الإنسان يُخلق من علق، جاء الاستدلال بذلك على الربوبية والنبوة، وإنما ساغ ذكر خلق آدم ضمن أطوار خلق الإنسان في غيرها من الآيات؛ لأن النبوة قد ثبتت إذ ذاك، فلا مانع إذًا من ضمّ هذا الطور الأول إلى بقية الأطوار، لتكتمل السلسلة، فتكون الآية أدل على عظمة الخالق ـ تعالى ـ وقدرته[2].

ولايخفى مافي هذا من دلالة على كمال المنهج القرآني في الاستدلال.

ونحو هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾[3].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، أي أن مما أراده الله ـ تعالى ـ من خلق الإنسان على هذه الحالة الدلالة على وجود خالقه، وعلى انفراده بالربوبية واستحقاق العبادة، قال ابن عاشور: (فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أريد منه، ومن لم يعقل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل؛ ولأجل هذه النكتة لم يؤت لفعل «تعقلون» بمفعول ولابمجرور؛ لأنه نُزّل منزلة اللازم، أي رجاء أن يكون لكم عقول، فهو مراد له من ذلك

---

(١) سورة العلق: ٢.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٣) سورة غافر: ٦٧.

الخلق)[1].

وقد ذكر ـ تعالى ـ هذه الأطوار والأحوال موصوفة بالقوة والضعف، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾[2] قال أبو حيان: (والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه)[3]، فناسب ختم الآية بهاتين الصفتين.

وذكر الله ـ عز وجل ـ أن هذا التخليق والتطوير للإنسان حصل له داخل ثلاث ظلمات، ألا وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة المنطوية على الجنين[4]، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾[5]، وفي ذلك زيادة دلالة على عظمة الخالق ـ جل وعلا ـ، وبالغ قدرته، قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾[6]، وقال في آخر آية الزمر: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾[7]، أي كيف يصرفكم صارف عن الله ـ تعالى ـ بعد كل هذه البراهين الساطعة، والحجج القاطعة.

وقد نبهنا الله ـ تعالى ـ في كتابه أيضا إلى إحسانه صورة الإنسان، وتسوية خِلقته وعدله، وأن ذلك كلّه من الدلائل على الخالق ـ جل وعلا ـ، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٩٨، ١٩٩.
(٢) سورة الروم: ٥٤.
(٣) البحر المحيط: ٧/ ١٨٠.
(٤) انظر أضواء البيان للشنقيطي: ٥/ ٧٧٨، ٧٧٩.
(٥) سورة الزمر: ٦.
(٦) سورة نوح: ١٣، ١٤.
(٧) سورة الزمر: ٦.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1] وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[2]، وصح عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه الترمذي بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه كان يقول في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته»[3] وفي رواية عن علي ـ رضي الله عنه ـ يرفعه: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[4].

وقد ذكر الرازي عن الفراء[5] والزجاج[6] في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ أن المراد: من الصور المختلفة بحسب الطول والقصر، والحسن والقبح، والذكورة والأنوثه، ثم قال الرازي: (ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر في غاية الظهور؛ لأن النطفة جسم متشابه الأجزاء، وتأثير طبع الأبوين فيه على السوية، فالفاعل المؤثر بالطبيعة في القابل المتشابه لايفعل إلا فعلاً واحدًا، فلما اختلفت الآثار والصفات، دل ذلك الاختلاف على أن المدبر هو القادر المختار)[7].

---

(١) سورة غافر: ٦٤.

(٢) سورة الانفطار: ٦ ـ ٨.

(٣) السنن، أبواب الصلاة، باب مايقول في سجود القرآن، (٢/ ٤٧٤)، حديث رقم: (٥٨٠)، وانظر سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب مايقول إذا سجد، (٢/ ٦٠)، برقم (١٤١٤)، وقد صححه أحمد شاكر كما في تحقيقه لسنن الترمذي، والألباني كما في صحيح سنن الترمذي: برقم (٤٧٤).

(٤) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب رقم: (٣٢)، (٥/ ٤٨٦)، حديث رقم (٣٤٢١)، وقد صححها الألباني كما في صحيح سنن الترمذي: رقم (٢٧٢١).

(٥) انظر معاني القرآن: ٣/ ٢٤٤.

(٦) انظر معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٢٩٥.

(٧) التفسير الكبير: ٣١/ ٨١.

ومما يبين عظمة حسن هذا التصوير، وعظمة مصوّره: التأمل في تميز صورة الإنسان عن سائر الحيوان، وإدراك الفطر أنها الأكمل والأجمل، والأحسن والأعدل، حتى كان من عقوبة الله ـ تعالى ـ لمن لم يرع تلك النعمة، سلبُ ذلك التميز عنهم، بأن مسخهم قردة وخنازير[1]، ولايعني هذا أن غير الإنسان من الخلق غير حسن أو معدول؛ فإن كل خلق الله حسن، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾[2]، لكن نحن نتحدث عن إحسان صورة الإنسان خصوصا، وتميزها عن غيرها، ودلالة ذلك على الخالق ـ جل وعلا ـ.

ومما نبه الله ـ تعالى ـ إليه في القرآن من أحوال خلق الإنسان: جعْله زوجين؛ ذكرًا وأنثى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ ﴾[3]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[5]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾[6]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ ﴾[7]، ووجه دلالة هذه الآيات على الخالق القادر ـ سبحانه وتعالى ـ كما يقول البيضاوي: إنه (خلق من مادة واحدة بشرًا ذا أعضاء

---

(١) قال ـ تعالى ـ في اليهود: ﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ ﴾ [المائدة: ٦٠].

(٢) سورة السجدة: ٧.

(٣) سورة فاطر: ١١.

(٤) سورة الروم: ٢١.

(٥) سورة النجم: ٤٥، ٤٦.

(٦) سورة القيامة: ٣٩.

(٧) سورة الفرقان: ٥٤.

مختلفة، وطباع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرًا وأنثى)[1]، فدل ذلك على الخالق القدير، ولو كان ذلك بالطبع كما يقول الطبائعيون، لما وُجد الضدّان من المادة الواحدة، مع كون الظروف متساوية.

وظاهرة الزوجية وخلق الأضداد والمتقابلات ليست من خصائص خلق الإنسان، بل هي في كل ما خلق الله ـ عز وجل ـ، كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[2]، قال ابن قتيبة: (يريد به ضدين: ذكرًا وأنثى، وأسود وأبيض، وحلوًا وحامضًا، وأشباه ذلك)[3].

ومن مظاهر التنوع في خلق الإنسان ماذكره الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾[4]، ولاشك أن اقتران هذا الاختلاف في الألسن والألوان في هذه الآية الكريمة بخلق السمٰوات والأرض، له دلالته على كبير شأن هذه الآية من آيات الله ـ تعالى ـ.

بل إن له ميزة عليها من جهة الاختلاف، فإن الواحد من البشر لايشتبه بغيره حتى لايتميّز منه، على كثرة عددهم، في حين أن السمٰوات متشابهة، وفي هذا الاختلاف من الحكم والمصالح مايدل على خالقه، فإن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليحفظ حقه، ويعرف عدوه من صديقه، وذلك بالبصر من جهة اختلاف الألوان والصور، وبالسمع من جهة اختلاف الألسن والأصوات، فسبحان العليم الحكيم،

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ١٤٥.
(٢) سورة الذاريات: ٤٩.
(٣) تأويل مشكل القرآن: ص٣١٤.
(٤) سورة الروم: ٢٢.

حيث جعل الاختلاف مختصا بهذا دون باقي الحواس[1].

ولاشك أن هذا الاختلاف من البراهين القاطعة على بطلان إسناد التأثير إلى الطبائع، كما يقول الملاحدة؛ لأنه لايكون إلا بإرادة مخصصة[2].

وكذلك ورد الاستدلال على الخالق ـ جل وعلا ـ بما رُكّب في الإنسان من وسائل الإدراك، وذلك في أكثر من موضع، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[3]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[4]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[5].

وبعد، فهذه بعض التنبيهات القرآنية إلى خلق الإنسان، ودلالة أحواله وأطواره، وبعض تفاصيله، على خالقه ـ جل وعلا[6] ـ، بل وعلى وحدانيته، وانفراده باستحقاق الألوهية دون غيره.

وفي تقرير دلالة ذلك إجمالاً على وجود الخالق ـ جل وعلا ـ، يقول أبو الفرج صدقة بن الحسين البغدادي[7] ـ كما نقل عنه شيخ

---

(١) انظر تفسير الرازي: ٢٥/ ١١١، ١١٢، وآيات الله في الأنفس والآفاق، أو طريقة القرآن الكريم في العقائد لأحمد العدوي: ص٤.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي: ص٤٨٦.

(٣) سورة النحل: ٧٨.

(٤) سورة المؤمنون: ٧٨.

(٥) سورة الملك: ٢٣.

(٦) ومن أراد التوسع في هذا فليراجع كتاب: الدلائل والاعتبار في الخلق والتدبير للجاحظ، والحكمة في المخلوقات للغزالي: ص٥٥، ومفتاح دار السعادة لابن القيم: ١/ ١٨٧ ـ ١٩٦.

(٧) صدقة بن الحسين بن بختيار بن الحداد البغدادي، أبو الفرج، توفي سنة ٥٧٣هـ، ذكر ابن تيمية أنه من المتأخرين المنتسبين إلى أحمد، الذين مالوا =

الإسلام في درء التعارض ـ: (وجه دلالة الإنسان من نفسه على الله ـ تعالى ـ أنه كان نطفة، ثم تقلبت به الأحوال إلى أن انتهى إلى حال الكمال، فلابد لهذا التنقل والتغيّر من مغيّر، ولم يكن التغير في وقت أولى من وقت، فلا يخلو ذلك المغير: إما أن يكون قد اقتضى تغيرها على سبيل الإيجاب من غير اختيار، بالطبع أو القالب[1]، أو يكون اقتضى تغيّرها على سبيل الاختيار، وهو الفاعل، ولايخلو ذلك الفاعل: إما أن يكون هو الإنسان، أو غيره.

وإن كان غيره فلا يخلو: إما أن يكون من جنسه أو من غير جنسه، فإن كان من جنسه، فإما أن يكون أبويه، أو غيرهما، فإن كان من غير جنسه فهو قولنا، وسنبطل سائر الأقسام ونثبت هذا الأخير.

أما أنه لايجوز أن يكون الإنسان قد تشكل لأجل أن الرحم على شكل القالب؛ فلأن الكلام فيمن شكل ذلك القالب، كالكلام فيمن شكل الإنسان؛ ولأن القالب يقتضي تشكيل ظاهر مايُلقى فيه، فما الذي اقتضى تشكيل باطن الإنسان، ووضع أجزاء الباطن مواضعها؟ ولايجوز أن يكون المقتضي لتغيير الإنسان وتشكيله طبيعة غير عالمة ولامختارة؛ لأن الإنسان أبلغ في الترتيب والحكمة من بناء دار وصناعة تاج، وكما لم يجز أن يحصل ذلك ممن ليس بعالم، فكذلك الإنسان. ألا ترى أن أعضاء الإنسان مقسومة على حسب المنفعة، وموضوعة مواضعها؟.

= إلى بعض كلام المعتزلة، انظر درء تعارض العقل والنقل: ١/ ٢٧٠، وذكر عنه ابن الجوزي عظائم، استدل بها على سوء معتقده، انظر المنتظم: ١٨/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥، ودافع عنه آخرون، انظر لسان الميزان لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(١) يعني بالقالب: الوعاء الذي صنع فيه الإنسان، وهو الرحم.

ولايجوز أن يكون الإنسان هو الذي غيّر نفسه من حال إلى حال؛ لأنه لو قدَر على ذلك في حال ضعفه، لكان في حال كماله أقدر، وإذا عجز عن خلق مثله، وخلْق أعضائه في حال كماله، فهو عن ذلك في حال الضعف أعجز.

ولايجوز أن يكون المغير له من حال إلى حال أبويه؛ لأنه ليس يجري حسب إيثارهما، ألا ترى أنهما يريدانه فلا يكون، ويكرهانه فيكون، ويريدانه ذكرًا فيكون أنثى، ويريدانه أنثى فيكون ذكرا، فإذا لم يكن لأبويه في ذلك تأثير، فغيرهما ممالاتعلق له به أجدر، فصح أن للإنسان فاعلاً مخالفا له[1]، وهو الله ـ تعالى ـ[2].

يقول ابن تيمية: (الحجة المتقدمة ـ وهي الاستدلال بحدوث الإنسان ـ حجة صحيحة، وهي من الحجج التي دل عليها القرآن وأرشد إليها)[3]. وبنحو هذا قرر الأشعري هذه الحجة باختصار[4]، وإن كان في بعض المواضع قد فارق الطريقة الشرعية القرآنية في إثبات وجود الله ـ تعالى ـ، كما سيأتي بعد قليل، كما ذُكر نحو هذا التقرير عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ[5].

ولايخفى أن ماذكره أبو الفرج في تقريره السابق لدلالة خلق

---

(١) أي: من غير جنسه.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل: ٨/ ٢٥، ٣١ ـ ٣٣، حيث نقل ابن تيمية هذا النص، وذكر أنه في كتاب «محجة الساري في معرفة الباري» لأبي الفرج البغدادي.

(٣) درء تعارض العقل والنقل: ٨/ ٣٣.

(٤) انظر اللمع في الرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسن الأشعري: ص١٩، ٢٠، وانظر كذلك تقرير الخطابي لهذه الحجة كما نقلها عنه ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٧٨.

(٥) ذكرها عنه الخوارزمي في مفيد العلوم ومبيد الهموم: ص١٢، كما ذكر ذلك د. يحيى فرغل في الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية: ص٤٠.

الإنسان على وجود الخالق ـ جل وعلا ـ، هو ماتضمنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1]، فهذه الآية الكريمة تقرر دلالة آيات خلق الإنسان في غاية القوة والوضوح.

وقد روى البخاري بسنده عن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لما سمعتها كاد قلبي أن يطير»[2]. وفي لفظ: «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»[3].

يقول ابن تيمية في تقرير معنى الآية: (هذا تقسيم حاصر، يقول: أخُلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا ممتنع في بَدائِه[4] العقول. أم هم خَلقوا أنفسهم؟ فهذا أشد امتناعا، فعُلم أن لهم خالقا خلقهم.

وهو ـ سبحانه ـ إنما ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليتبين أن هذه القضيّة التي استدل بها فطرية بديهية، مستقرة في النفوس، لايمكن أحدًا إنكارها، فلا يمكن صحيحَ الفطرة أن يدعي وجود حادث بدون محدث أحدثه، ولايمكنه أن يقول: هو أحدث نفسه)[5].

وللفخر الرازي وجه استدلال آخر لطيف في خلق الإنسان، أخذه

---

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) الصحيح، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطور، (٤/ ١٨٣٩)، حديث رقم (٤٥٧٣).

(٣) المرجع السابق: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا، ٤/ ١٤٧٥ حديث رقم (٣٧٩٨).

(٤) جمع بديهة، وقد كتبت في مطبوعة الرد على المنطقيين: (بداية)، ويظهر لي أن ما أثبته أنسب للسياق.

(٥) الرد على المنطقيين: ص٢٥٣، وانظر الفتاوى: ٢/ ١١، والصواعق المرسلة لابن القيم: ٢/ ٤٩٣، ٤٩٤، والفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ضمن الفتاوى: ١٣/ ١٥١، وتعليق الخطابي على الآية في الأسماء والصفات للبيهقي: ص٤٩٥، ٤٩٦.

من قوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾[1]، حيث يقول في تقرير دلالة الآية: (والمقصود أن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة، إلى هذه الحالة العالية الشريفة، لايحصل إلا بتدبير مدبر حكيم عليم)[2]، ثم ذكر أن هذا الوجه أوفق في تقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم من تفسيره بأنه خصيم لربه منكر لخالقه؛ لأن الآيات سيقت لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع، لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الكفر.

وينبهنا الأشعري إلى وجهٍ آخر لدلالة خلق الإنسان على الخالق ـ جل وعلا ـ، فيقول: (ويدل ترتيب ذلك على محدث قادر حكيم، من قِبَل أن ذلك لايجوز أن يقع بالاتفاق، فيتم من غير مرتب له، ولا قاصد إلى ما وُجد منه[3] فيها[4]، دون ما كان يجوز وقوعها عليه، من الهيئة المخالفة لها، وجواز تقدمها في الزمان، وتأخرها بذلك إلى محدثها ومرتبها؛ لأن سلالة الطين والماء المهين يحتمل من الهيئات ضروبًا كثيرة، لايقتضي واحد منها سلالة الطين، ولا الماء المهين بنفسه، ولايجوز أن يقع شيء من ذلك فيها بالاتفاق، لاحتمالها غيره)[5].

وهو في كلامه هذا ينبه إلى دلالة الإتقان والقصد في خلق الإنسان، على وجود خالق مبدع له. وسياق كلامه يشير إلى دليل الجواز، الذي احتفى به المتكلمون بعده، كالجويني وغيره، وهو دليل صحيح في ذاته، إلا أن المتكلمين قد أضفوا إليه صورة قاتمة، بسبب جدلهم المذموم، وتعقيداتهم المضلة، مما كاد يسلبه بساطته وسهولته، وسلاسة

---

(١) سورة النحل: ٤.
(٢) تفسير الرازي: ١٩/ ٢٢٦.
(٣) الضمير يعود إلى الترتيب.
(٤) الضمير يعود إلى الأجسام.
(٥) رسالة إلى أهل الثغر: ص١٤٦ ـ ١٤٧.

أسلوبه[1]، كما في كلام الأشعري هنا.

أمّا استدلال المتكلمين بخلق الإنسان على الخالق ـ جل وعلا ـ فقد جاء موافقا لمنهجهم البدعي في إثبات الصانع وحدوث العالم، المتمثل في إثبات الأعراض، ثم إثبات حدوثها، ثم إثبات أن الأجسام لاتخلو منها، ثم إثبات أن مالا يخلو من الحوادث فهو حادث، وهذا مبني على امتناع حوادث لا أول لها، وطردُ ذلك في سائر الأجسام مبني على القول بتماثلها، فبذلك يثبتون أن العالم حادث، والحادث لابد له من محدث، فبذلك يُثبت الصانع عندهم[2].

فلم يجعلوا خلق الإنسان دليلاً مباشرًا على خالقه، كما جاءت به الطريقة القرآنية، بل أخذوا أولاً يستدلون على أن الإنسان مخلوق محدث، بأن النطفة والعلقة والمضغة لاتنفك من أعراض حادثة، كالاجتماع والافتراق وغير ذلك، ومالايخلو من الحوادث فهو حادث؛ لامتناع حوادث لا أول لها، كما هو قانونهم، إذًا فالإنسان حادث مخلوق، يحتاج إلى خالق.

وهكذا حملوا ما جاء في القرآن من ذكر خلق الإنسان أطوارًا على

---

(١) انظر تصوير هذا الدليل عند المتكلمين ونقد ابن رشد لهم وتعقب ابن تيمية له في (بين ابن تيمية وابن رشد في الإلـٰهيات) لمنيف العتيبي: ١/ ٣٤٥ ـ ٣٦٧، وقد مرّ الحديث عنه عند الحديث عن دلالة التخصيص في المخلوقات.

(٢) انظر على سبيل المثال: شرح الأصول الخمسه لعبدالجبار المعتزلي: ص٩٣ ـ ٩٥، والمحيط بالتكليف له أيضا: ص٣٦، والتمهيد للباقلاني: ص٣٨ ومابعدها، والإنصاف له أيضا: ص٢٧ ومابعدها، والشامل للجويني: ص٦٨ ومابعدها من الجزء الأول، والإرشاد له أيضا: ص٢٨، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ١٩ ومابعدها، وكتاب أصول الدين لعبدالقاهر البغدادي، الأصلين الثاني والثالث: ص٣٣ ومابعدها، وكتاب الداعي إلى الاسلام لابن الأنباري: ص١٢٣ ومابعدها، وشرح المواقف للجرجاني: ٥/ ٥.

هذه الطريقة، مع أن المفارقة بين طريقتهم والطريقة القرآنية ظاهرة؛ فإن ماجعله القرآن دليلاً جعلوه هم مستدلاً عليه، فالقرآن يجعل خلق الإنسان وحدوثه مقدمة بدهية تعرف بالحس، ويبنى عليها ضرورة وجود خالق أبدعه، كما مر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وهم يزعمون أن الحس إنما يدرك حدوث الأعراض دون الأجسام، وأن حدوث جواهر النطفة والعلقة والمضغة لايُعرف بالبديهة، والذي دعاهم إلى هذا هو قولهم: إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر المنفردة، وأن ما يطرأ على الأجسام من أحوال وتخليق إنما يكون بإحداث أعراضٍ في تلك الجواهر لاغير، كالأكوان الأربعة، التي هي الاجتماع والافتراق والتحريك والتسكين، وغيرها من الأعراض، وهذا هو الشأن عندهم في كل مايحدثه الله ـ تعالى ـ من سحاب ومطر وزرع وثمر وحيوان، وغير ذلك من أنواع المخلوقات، فالذي يفعله الله ـ تعالى ـ فيها إنما هو جمع وتفريق لجواهرها[1]، وهو مايسمونه

---

(١) يقول فخر الدين الرازي في المطالب العالية: ٦/١٩٩: (وأما القائلون بحدوث الجواهر والأجسام فقد اتفقوا على أنه ـ تعالى ـ يخلق هذه الجواهر ثم يؤلفها ثم يركبها، فيتولد من تأليفها وتركيبها هذه الأجسام العظيمة).

ولنقض هذا الاتفاق المزعوم في حقيقة كيفية خلق الله ـ تعالى ـ للمخلوقات، انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٥/١٩٢ ـ ٢٠٣، حيث قرر أن استحالة جسم إلى جسم آخر، مشهود ومعروف عند العامّة والخاصة، وأن القول ببقاء أجزاء الجسم بعينها بعد استحالته إلى حالة أخرى ـ كالمنيّ إذا صار آدميا، والهواء إذا صار نارًا ـ أن هذا مكابرة للحس، والصواب أن نفس حقيقة الشيء استحالت، فخُلق من الأولى ماهو مخالف لها، وفنيت الأولى، ولم يبق من نفس حقيقتها شيء، ولكن بقى ماخلق منها، كما يبقى الإنسان الذي خلق من أبيه بعد موت أبيه.

وقد نبه الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ على أهميّة معرفة هذه المسألة على وجهها بقوله: (ومن عرف هذا زاحت عنه شبهات كثيرة في الإيمان بالله =

إحداث أعراضها، وهو الذي يُعلم عندهم بالحس وبديهة العقل، أما حدوث أعيان الأجسام، أو مايسمونه بالجواهر، فإنما يعلم بطريقتهم السالفة الذكر.

وزعموا أن أحدًا لايمكنه أن يقيم دليلاً على حدوث الأجسام إلا بطريقتهم هذه في الاستدلال، وهذا مخالف لما عليه جمهور العقلاء من السلف والخلف، إذ إنهم يثبتون تحول الأجسام بعضها إلى بعض، ويقولون بأن الرب ـ تعالى ـ لايزال يحدث الأعيان، كما دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾[2]، فحدوث عين الإنسان في بطن أمّه ليس مما يستدل عليه، بل هو معلوم لكل أحد، وأوضح عنده مما استدل به أهل الكلام على حدوثه لو كان صحيحا، فكيف إذا كان باطلاً؟

ولو كان صحيحا من نفسه لم يكن معلومًا إلا بأدلة دقيقة غامضة،

= تعالى وباليوم الآخر، في الخلق والبعث، وفي إحياء الأموات وإعادة الأبدان، وغير ذلك مماهو مذكور في غير هذا الموضع، فهذا الموضع يحتاج إلى تحقيقه كل من نظر في هذه الأمور، فإنه بمعرفته تُحل كثير من الشبهات المتعلقة بالله وباليوم الآخر، ويُعرف من الكلام الذي ذمّه السلف، والمعقول الذي يقال إنه معارض للرسول، مايتبيّن به أن هؤلاء خالفوا الحس والعقل) درء تعارض العقل والنقل: ٥/١٩٦ ثم ساق على ذلك أدلة حسّية ونقلية وعقلية تشهد لما قرره.

وانظر كلامه في هذه المسألة أيضا في درء تعارض العقل والنقل: ٧/٢١٩ ومابعدها، والفتاوى: ١٦/٢٧١، ٢٧٢، وسيأتي طرف منه، والنبوات له: ص٧٥ ومابعدها.

(١) سورة مريم: ٩.

(٢) سورة مريم: ٦٧.

لايمكن أن تكون من أصل الدين، فإن أصل الدين يجب أن يقوم على مقدمات أولية بينة معلومة بالبديهة[1].

فطريقهم كما يقول ابن تيمية: (تتضمن جحدَ ماهو المعلوم، وهو حدوث الأعيان الحادثة، وهذا معلوم للخلق، وإثباتَ ماليس بمعلوم بل هو باطل، وهو أن الإحداث لها إنما هو جمع وتفريق للجواهر، وأنه إحداث للأعراض فقط... فالقرآن استدل بماهو معلوم للخلق، من أنه ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[2]، وهؤلاء جاؤوا إلى هذا المعلوم فزعموا أنه غير معلوم، بل هو مشكوك فيه، ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلومًا، فذكروا دليلاً باطلاً لايدل على حدوثه، بل يُظن أنه دليل وهو شبهة، ولها لوازم فاسدة)[3].

ويقول ابن الوزيرمنكرًا على المتكلمين هذه الطريقة: (ليت شعري ـ على كلام المتكلمين ـ، لِمَ حضّ الله الخلق على النظر في السمٰوات ونحوها؟ وما الفرق في دلالة الأعراض بين السماء وذرة من تراب؟)[4].

وممن نبه على بدعية هذه الطريقة وخفائها، غموضها وخطورتها، وصرح بذمها: الإمام أبو الحسن الأشعري[5]، وهو مع ذلك لم يسلم من التأثر بها عند استدلاله بخلق الإنسان على وجود الله ـ تعالى ـ، حيث يقول معلقا على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً...﴾[6] إلخ الآية مانصه:

---

(١) انظر الفتاوى: ١٦/٢٦٧ ـ ٢٧٢، ودرء تعارض العقل والنقل: ٧/٢١٩ ومابعدها.

(٢) سورة العلق: ٢.

(٣) الفتاوى: ١٦/٢٧١، ٢٧٢.

(٤) البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ماجاءت به الشرائع: ص١١٦.

(٥) انظر رسالته إلى أهل الثغر: ص١٨٥ ـ ١٨٧.

(٦) سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

(وهذا من أوضح مايقتضي الدلالة على حدث الإنسان، ووجود المحدِث له، من قِبل أن العلم قد أحاط بأن كل متغيّر لايكون قديما، وذلك أن تغيّره يقتضي مفارقة حال كان عليها قبل تغيّره، وكونُه قديما ينفي تلك الحال، فإذا حصل متغيّرا بما ذكرناه من الهيئات التي لم يكن قبل تغيّره عليها دل ذلك على حدوثها، وحدوث الهيئه التي كان عليها قبل حدوثها؛ إذ لو كانت قديمة لما جاز عدمها، وذلك أن القديم لايجوز عدمه، وإذا كان هذا على ماقلنا، وجب أن يكون ماعليه الأجسام من التغيّر منتهيا إلى هيئات محدثة، لم تكن الأجسام قبلها موجودة، بل كانت قبلها محدثة)[1]. فهو هنا بنى استدلاله على أصل المتكلمين في إثبات حدوث العالم، وهذا من البقايا التي بقيت عند الأشعري من أصول المعتزلة العقلية، بعد رجوعه عن مذهبهم[2].

إلا أن طريقة الأشعري هذه أوضح من طريقة المتكلمين، وأخصّ دليلاً ومدلولاً؛ فإن هيئات الإنسان وصوره المختلفة ودلالتها على حدوث الإنسان، وإن كانت من جنس طريقة الأعراض، إلا أنها أخص من مطلق دلالة حدوث الأعراض على حدوث ماقامت به من جواهر وأجسام[3].

والحاصل هنا أن مفارقة الطريقة الكلامية البدعية للطريقة القرآنية من وجهين:

أحدهما: أنهم جعلوا الحوادث إنما هي أعراض لا أعيان، وهذا

---

(١) رسالة إلى أهل الثغر: ص١٤٤ ـ ١٤٦، وانظر اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع له: ص٢٠، حيث بدأه بمسألة في إثبات الصانع قرر فيها دلالة خلق الإنسان، على الطريقة القرآنية، إلا أنه لم يلبث أن ذكر شبهة احتمال قِدم النطفة، ثم ردّها على منهج المتكلمين في إثبات حدوث العالم.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٧/ ٢٢١، والنبوات: ص٧٣.

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٢٢٨.

وإن كان فيه دليل صحيح على إثبات الصانع، من جهة حاجة الأعراض إلى محدث، إلا أن فيه قصورًا من جهة قَصْر الحدوث على الأعراض دون الأجسام.

ثانيهما: استدلالهم بحدوث الأعراض على حدوث محالّها، وهذا لايتم إلا بامتناع حوادث لا أول لها، وبالقول بتماثل الأجسام، وهذه مقدمات ينازعهم فيها أكثر العقلاء، بل يبينون فسادها بصريح المعقول[1].

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٢٣٥، وفيه عمومًا بيان بطلان هذه المقدمات بالتفصيل.

obeikandl.com

الصورة الثانية
خلق السمٰوات والأرض والدواب

تكلمنا فيما مضى عن المجال الأول من مجالات الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، ألا وهو آيات الأنفس، وسنذكر هنا المجال الآخر، حسب ما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[1]، ألا وهو آيات الآفاق، التي تتمثل فيما ذكره الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[2]، فإنا إذا فصلنا الكلام على مضمون هذه الآية، نكون بإذن الله ـ تعالى ـ قد استوفينا التنبيه على دلالة آيات الله ـ تعالى ـ في الآفاق، فإن الآية قد شملت العالم العلوي بذكر السمٰوات، والعالم السفلي بذكر الأرض، وجميع الأحياء بذكر الدواب المبثوثة، ولايعني استيعاب التنبيه على دلالة المخلوقات إحصاءها نوعًا نوعًا، وبيان دلالة كل منها، فإن هذا لايحصيه إلا خالقه ـ جل وعلا ـ، ولكن المقصود استيعاب ماورد التنبيه عليه في القرآن، وأنه شامل لأنواع المخلوقات.

ودلالة خلق السموات والأرض على الخالق لاتقل أهميةً عن دلالة خلق الإنسان، بل قد جاء في موضعين من القرآن التصريح بتفوقهما في الكبر والشدة على الإنسان، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة الشورى: ٢٩.

(٣) سورة غافر: ٥٧.

فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وكان خلقها وفطرها هو دليل الرسل بعد الفطرة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقد جاء الأمر الصريح بالنظر في خلق السموات والأرض، كما جاء في شأن خلق الإنسان، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]، كما جاء الإنكار على الكفار في إعراضهم عما في السموات والأرض من آيات تدل على ربوبيته ـ تعالى ـ، وانفراده باستحقاق الألوهية دون غيره، وعلى المعاد والحساب والجزاء، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[5]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[6]، في حين مدح الله ـ تعالى ـ أولي الألباب بأنهم: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[7].

والآيات الداعية إلى التفكر في خلق السموات والأرض، المنكرة على من غفل عن آياتهما، كثيرة جدًا، يضيق المقام عن ذكرها، وحسبنا

---

(١) سورة النازعات: ٢٧ ـ ٣٠.
(٢) سورة إبراهيم: ١٠.
(٣) سورة يونس: ١٠١.
(٤) سورة ق: ٦ ـ ٨.
(٥) سورة الأعراف: ١٨٥.
(٦) سورة يوسف: ١٠٥، ١٠٦.
(٧) سورة آل عمران: ١٩١.

ذكر ماتضمنت من لفتات إلى مافي خلق السموات والأرض ومابينهما من وجوه الدلالة على الخالق البديع ـ جل وعلا ـ.

وأود قبل ذلك أن أنبه في هذا الشأن إلى ظاهرة قرآنية تلفت الانتباه، ألا وهي تكرر ذكر خلق السموات والأرض بالحق، ومافي معناه من نفي خلقهما باطلاً ولعبا، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، وفي هذا المعنى آيات كثيرة جدًا[2]، وبعضها جاء بالحصر المتضمن مزيدًا من التأكيد، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[3]، وهذه ظاهرة مهمة، حري بالمتأمل في كتاب الله أن يقف عندها، ويستوحي دلالتها، والمعنى أن الله ـ تعالى ـ لم يخلق تلك المخلوقات باطلاً، بل خلقها صادرةً عن الحق، مشتملةً عليه، آيلةً إليه، فالحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له، فالحق السابق: صدور ذلك عن علمه وحكمته، والحق المقارن: ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع، والآياتِ الدالة على الخالق وصفاته، وصدق رسله، ولقائه، وأما الحق الذي هو غاية خلقها فهو غايتان: غاية تراد من العباد؛ وهي معرفتهم بخالقهم وعبادتُهم له، وغاية تُراد بهم؛ وهي الجزاء بالعدل والفضل، والثواب والعقاب[4]. وإلى هذه المعاني أشارت الآيات التي تذكر خلق السموات والأرض ومابينهما بالحق، بحسب

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٤.

(٢) انظر السور التالية: الأنعام: ٧٣، إبراهيم: ١٩، النحل: ٣، الروم: ٨، الزمر: ٥، التغابن: ٣، الجاثية: ٢٢، الأحقاف: ٣، وبمعناها في: يونس: ٥، والأنبياء: ١٦ ـ ١٨، وص: ٢٧، والدخان: ٣٩.

(٣) سورة الحجر: ٨٥.

(٤) انظر بدائع الفوائد لابن القيم: ٤/ ١٦٢ ـ ١٦٧، وأضواء البيان: ٧/ ٣٦٥ ومابعدها.

سياقها. فتارة يشير السياق إلى كون الحق الذي خلقت السموات والأرض به هو إفراد الله ـ تعالى ـ بالإلهية دون غيره، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾[1]، وتارة يشير إلى البعث والعدل والجزاء، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾[2]، وتارة يكون ذكر الخلق بالحق مطلقا كما في أكثر الآيات التي جاءت بهذا المعنى، فيشمل كل هذه المعاني المتلازمة، كما يشمل بالأولوية دلالة خلق السموات والأرض على خالقها وفاطرها، وهذا مانريد تفصيله في هذا المقام.

١ ـ آيات السماء:

تطلق العرب لفظ (السماء) على عدة معان، يجمعها ويربط بينها: العلو، فإن السماء مشتقة من السمو، والسين والميم والواو أصل يدل على العلو، يقال: سموت إذا علوت، والعرب تسمي السحاب سماءً، والمطر سماءً، وكذلك سقف البيت، وكل عالٍ مطل فهو سماء، حتى يقال لظهر الفرس سماء، ويتوسعون حتى يسمّوا النبات سماءً[3].

ولفظ السماء في القرآن العزيز متردد بين هذه المعاني، فمن إطلاقه على السحاب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[4]، وعلى المطر قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾[5]، وعلى سقف البيت قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[6]، وعلى مطلق العلو قوله:

---

(١) سورة النحل: ٣.
(٢) سورة الجاثيه: ٢٢.
(٣) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣/ ٩٨.
(٤) سورة النحل: ٦٥.
(٥) سورة نوح: ١١.
(٦) سورة الحج: ١٥.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤﴾[2].

وأُطلق لفظ السماء في أكثر المواضع على ذلك الخلق العظيم، الموصوف في الكتاب والسنة بأنه سبع طباق، لها أبواب تستفتح، وسكان من الملائكة والنبيين، وبينها مسافات مقدرة، وأوصاف أخرى، تدل على أنها أجرام محسوسة، غير الكواكب، وإنما الكواكب زينة دنياهن.

والمتأمل في الموارد التي ذكرت فيها السماء في القرآن بهذا المعنى الأخير، سواء بالإفراد أو بالجمع[3]، لابد وأن يسلم بادىء ذي بدء، بأن قدرًا كبيرًا من هذا العالم العلوي، إنما ثبت العلم به من طريق السمع، إذ ليس هو بأجمعه داخلاً تحت الحس البشري، وأظهر مثال لذلك السموات السبع، فإنا إذا استبعدنا الرأي القائل: إنها الكواكب السيارة[4]؛ لظهور ضعفه، لم يبق لنا طريق للعلم بكونها سبعا سوى السمع.

هذا وإن كون السموات السبع أجرامًا محسوسة، بعضها فوق بعض، فيها سكان من الأنبياء والملائكة، ولها أبواب تُستفتح وتولج، وبينها مسافات مقدرة بكذا وكذا، إلى غير ذلك من الأوصاف الثابتة بالسمع، هو حقيقة شرعية، ثبتت بالكتاب والسنّة الصحيحة الصريحة، بما لامجال معه للتأويل[5]، وإذا تقرر هذا، فإنه يترتب عليه أن ما ورد من الاستدلال بخلق السماء، ومافيها من آيات، ليس كلّه من باب الاستدلال العقلي، بل إن منه قدرًا كبيرًا هو من باب الاستدلال السمعي،

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٤.

(٣) نقل الألوسي عن صاحب الإتقان قوله: حيث يراد العدد يؤتى بالسماء مجموعة، وحيث يراد الجهة يؤتى بها مفردة. انظر روح المعاني: ١٧/ ٢١.

(٤) انظر التحرير والتنوير: ١/ ٨٥.

(٥) انظر مثلاً صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (٣/ ١١٧٣)، حديث رقم: (٣٠٣٥).

إذ العلم به إنما حصل من طريق السمع، وهذا الاستدلال السمعي على ربوبية الله ـ تعالى ـ وإن كان صحيحا، إلا أنه متوقف على ثبوت النبوة، فمثله كمثل ماتقدم ذكره من خلق الإنسان من طين.

كما يترتب على ذلك أيضا أن ماورد في القرآن من الأمر الصريح بالنظر إلى السماء ليس مقصورًا على الرؤية البصرية فحسب، بل إنه يتناول كذلك الرؤية الإيمانية القلبية المستمدة من نور الوحي، إذ ليس ما تتناوله الرؤية البصرية من السماء الدنيا هو كلّ مافي السمٰوات من عظمة وكبر وسعة، بل إن وراء ذلك سموات أخرى لاتقل عنها عظمة واتساعًا ودلالة على باريها، إلا أن رؤيتها إيمانية علمية لابصرية، ولايمنع ذلك من دلالتها على بديع صنع الله ـ تعالى ـ. فإنها بالإضافة إلى كونها حاصلة بالرؤية القلبية العلمية المستمدة من الإيمان بالوحي، فهي كذلك حاصلة بمشاهدة السماء الدنيا ومافيها من آيات، فإنها تدل على البقية من باب قياس الغائب على الشاهد، وهو مقبول بين المخلوقات دون الخالق، فالسماء الدنيا تدلنا على مافي غيرها من الحبك والإتقان، وعدم التفاوت والفروج، كما قال الله ـ تعالى ـ عنها: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]، وإن مما يقرّب الأمر، التأمل في ذكر العرش، فكم ورد في القرآن والسنّة مضافا إلى الرب ـ تبارك وتعالى ـ على أنه من دلائل ربوبيته وشواهد عظمته، ونحن إنما علمنا به من طريق السمع، لم نره طرفة عين، إلا بإيماننا رؤية قلبية علمية، كما رُوي عن الحارث بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: (. . . وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا. . .)[2]، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ مَن

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٢.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٣/٢٦٦ ـ ٢٦٧، برقم (٣٣٦٧) وابن المبارك في الزهد: ١٠٦، باب الهرب من الخطايا والذنوب، برقم (٣١٤). =

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾[1]، ففي اقتران العرش بالسبع مايوحي بما ذكرنا، من أن الغالب في رؤيتها أنها علمية لابصرية.

وفي ضوء ماتقدم يُفهم قوله ـ تعالى ـ فيما قص عن نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾[2]، يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: (إنما وجه نوح قومه إلى السماء، وأخبرهم كما علّمه الله أنها سبع طباق، فيهن القمر نور، وفيهن الشمس سراج، وهم يرون القمر ويرون الشمس، ويرون مايطلق عليه اسم السماء، وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق، أما ماهو؟ فلم يكن ذلك مطلوبا منهم، ولم يجزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن، وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة، وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه)[3].

وهكذا القول في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[4]، وقوله ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا

= والبيهقي في شعب الإيمان: ٧/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣، باب في الزهد وقصر الأمل، برقم: (١٠٥٩٠) و(١٠٥٩١) و(١٠٥٩٢) وفي الزهد الكبير: ٣٥٥ برقم: (٩٧٣)، وعبدالرزاق الصنعاني في المصنف: ١١/ ١٢٩ برقم: (٢٠١١٤) وابن أبي شيبة في الإيمان برقم: (١١٥). وأسانيد الحديث ضعيفة، انظر تخريج الإحياء للعراقي في حاشية إحياء علوم الدين للغزالي: ٤/ ٢٣٤ والإصابة لابن حجر: ١/ ٢٨٩ ومجمع الزوائد: ١/ ٦٢ وتخريج الألباني لكتاب الإيمان لابن أبي شيبة: ٣٨ الحاشية.

(١) سورة المؤمنون: ٨٦.

(٢) سورة نوح: ١٥، ١٦.

(٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٧١٤، وانظر للأهمية ماقاله عن السمٰوات، في مقومات التصور الإسلامي: ٣٢٦ ـ ٣٢٩.

(٤) سورة البقرة: ٢٩.

أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[2]، وغيرها من الآيات التي ذكرت فيها السموات السبع، فالمقصود أن الاستدلال بالسماء على الله ـ تعالى ـ يجمع بين الطريقين: الحسي والإيماني، وينحصر الطريق الحسي بالنسبة للبشر من غير الأنبياء في السماء الدنيا، ومافيها من آيات الربوبية، فإذا تقرر هذا، فلنشر الآن إلى مانبه إليه القرآن من أنواع الدلالة فيها.

أ ـ رفع السماء وإمساكها.

تتجلى في رفع السماء وإمساكها دلالات العناية والتسخير والتقدير، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[3] وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[5]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا[6]﴾[7]، وقوله ـ تعالى ـ:

---

(١) سورة فصلت: ١١، ١٢.

(٢) سورة الملك: ٣، ٤.

(٣) أي (كراهة أن تزولا، فإن الممكن حال بقائه لابد له من حافظ، أو يمنعهما أن تزولا؛ لأن الإمساك منع)، تفسير البيضاوي: ٢/ ٢٧٥.

(٤) سورة فاطر: ٤١.

(٥) سورة الحج: ٦٥.

(٦) يحتمل أنها بعمد لا تُرى، ويحتمل أنها بلا عمد أصلاً، و(ترونها) تأكيد لنفي ذلك، وهذا هو الأليق بالسياق، والأكمل في القدرة كما يقول ابن كثير، انظر تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٤٧.

(٧) سورة الرعد: ٢ ونحوها في لقمان: ١٠.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[1][2] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾[3].

يقول ابن الوزير في تقرير دلالة الآيات السابقة:

(هذه حجة أجمع عليها الكفرة مع المسلمين؛ فإن الجميع اتفقوا على أن العالم في الهواء[4]، أرضه وسماءه، ومافيه من البحار والجبال، وجميع الأثقال، وقد ثبت بضرورة العقل أن الثقيل لايستمسك في الهواء إلا بممسك، وأن هذا الإمساك الدائم المتقن لايكون من غير رب عظيم، قدير عليم، مدبر حكيم)[5].

ويجدر التنبيه هنا إلى أنه قد اشتهر عند أصحاب التفسير العلمي للقرآن تفسير هذا الإمساك بالجاذبية، وبذلك فسروا العمد في آيتي الرعد ولقمان، والإمساك في آيتي فاطر والحج[6]، والذي يظهر ضعف هذا التفسير لوجوه:

---

(١) (أي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها)، تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٧٤.

(٢) سورة الروم: ٢٥.

(٣) سورة الغاشية: ١٨.

(٤) يقصد بالهواء الفضاء والفراغ، وهو إطلاق معروف عند العرب، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: خالية من الخير، ومنه قول حسّان لأبي سفيان بن الحارث: فأنت مجوّف نخِب هواء. انظر تفسير الطبري: ١٣/ ٢٤١.

(٥) إيثار الحق على الخلق: ص٥٤ باختصار.

(٦) انظر مثلاً «الدروس الدينية» للشيخ محمد مصطفى المراغي: ص٦١ ـ ٦٤، نقلا عن «التفسير العلمي للقرآن» للدكتور أحمد أبو حجر: ص٢٣٢ الحاشية، والإسلام يتحدى لوحيد الدين خان: ص١٢٥. وانظر كلامًا مهما لسيد قطب ـ رحمه الله ـ في نقد تفسير القرآن بالنظريات العلمية، وبيان طبيعة المنهج القرآني في عرض الحقائق الكونية، في كتابه: مقومات التصور الإسلامي: ٣٢٢ ـ ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩.

* أن الأليق بالسياق، والأكمل في القدرة أنها بلا عمد، و(ترونها) تأكيد لنفي ذلك[1].

* أن اللغة لاتؤيد تفسير العمد بالجاذبية، كما أنه لم يرد بذلك نقل.

* أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[2]، وهذا يوحي بأن إمساك العالم هو بمحض الأمر الإلـهي دون سبب، وهذا مايؤيده التفسير الأول لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

* أنّ هذا التفسير قائم على أن المراد بالسموات: الكواكب، وقد تقدم أن هذا مخالف لصريح السنة، من كونها أجرامًا محسوسة، غير الكواكب.

ب ـ بناؤها وحبكها وإيساعها.

تتجلى في بناء السماء وحبكها وإيساعها دلالة الإتقان والإحكام، كما دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ[3] وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾[4][5]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[6] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾[7].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٤٧.

(٢) سورة الروم: ٢٥.

(٣) الأيْد: القوة، مصدر آد يئيد، ومن ظن أنها جمع يدٍ فقط غلط غلطا فاحشًا، انظر أضواء البيان: ٧/ ٦٦٩.

(٤) (لموسعون) إما أن يكون معناها: (وسّعنا أرجاءها)، أو هي من الوُسع بمعنى الطاقة، فيكون المعنى: وإنا لقادرون. انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٥٠ وتفسير البيضاوي: ٢/ ٤٣١.

(٥) سورة الذاريات: ٤٧.

(٦) سورة البقرة: ٢٢.

(٧) سورة الأنبياء: ٣٢.

قال إياس بن معاوية[1]: السماء على الأرض مثل القبة[2].

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، قالوا في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾: بناء السماء على الأرض كهيئة القبة، وهي سقف على الأرض[3].

ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾[4]، قال ابن عاشور: (والمراد بالسماء هنا ماتراه العين من كرة الهواء التي تبدو كالطبق، وتسمّى الجو)[5].

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ ﴾[6]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ

---

(١) هو إياس بن معاوية بن قرة، أبو وائل، تابعي، تولى قضاء البصرة زمن عمر بن عبدالعزيز، وتوفي سنة ١٢٢. انظر المعارف لابن قتيبة: ص٢٦٤.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٤٧ وتفسير البيضاوي: ١/ ٣٧.

(٣) جامع البيان: ١/ ١٦٢.

(٤) سورة ق: ٦.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٨٦، وقد فسر ابن عاشور السموات بالكواكب ـ التي هي عنده المجموعة الشمسية عدا الأرض ـ استظهارًا، وأنها هي المشاهدة بأعين المخاطبين، فالاستدلال بها استدلال بالمحسوس، وفسر طباقا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ بأنها مصدر طابق، أي أن السموات شديدة المطابقة لبعضها، أي متناسبة في النظام، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ انظر التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٦، ١٧ و١/ ٣٨٥، وماذهب إليه ابن عاشور ـ رحمه الله تعالى ـ مخالف لما دل عليه صريح السنّة في حديث المعراج وغيره، كما يردّه تخالف العدد بين السمٰوات السبع والكواكب في المجموعة الشمسية، فقد استقر الأمر أخيرًا على أنها تسعة بمافيها الأرض، أما ماذكر من الاستدلال بالمحسوس فقد تقدم التفصيل فيه. وانظر التفسير العلمي للقرآن في الميزان: ص٣٨١، ٣٨٢.

(٦) سورة النازعات: ٢٧، ٢٨.

فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[1]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾[2] ويقول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾[3].

جـ ـ تزيينها بالكواكب والنجوم.

تتجلى في تزيين السماء بالكواكب والنجوم دلالات العناية والإتقان، والتقدير والنظام، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾[4]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾[5] ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[6]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[7]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾[8]، ويلاحظ تخصيص السماء الدنيا بهذه الزينة، وذلك واضح في سياق قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[9]، وما ذاك ـ والله أعلم ـ إلا لأنها هي التي في مدى الرؤية الحسية البصرية، دون بقية

---

(١) سورة الملك: ٣، ٤.
(٢) سورة الذاريات: ٧.
(٣) سورة الشمس: ٥.
(٤) سورة الصافات: ٦، وفي المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: (الكواكب: النجوم البادية، ولايقال لها كواكب إلا إذا بدت)، ص٤٢٠.
(٥) سورة الحجر: ١٦، وفي المفردات للراغب: (البروج: القصور، الواحد برج، وبه سمّي بروج النجوم لمنازلها المختصة بها) ص٤١.
(٦) سورة الملك: ٥.
(٧) سورة فصلت: ١٢.
(٨) سورة الفرقان: ٦١.
(٩) سورة فصلت: ١٢.

السموات، وفي هذا مزيد تأكيد على ضعف تفسير السموات السبع بالكواكب.

وإنه لمن عجيب أمر العناية الإلٰهية بهذا الإنسان أن تُجعل هذه المخلوقات العظيمة الهائلة زينة في السماء، من أجل أن ينظر هو إليها، فيتعرف على مزيّنها ومقدّرها.

د ـ الليل والنهار والشمس والقمر.

إن من آيات السماء الليل والنهار والشمس والقمر، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[2].

وتتجلى دلالة هذه الآيات من خلال أوصاف كثيرة فيها:

فمن ذلك تسخيرها وتدبيرها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾[5].

ومن ذلك تقديرها وانتظامها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ

---

(١) سورة فصلت: ٣٧.
(٢) سورة الإسراء: ١٢.
(٣) سورة الأعراف: ٥٤.
(٤) سورة الزمر: ٥.
(٥) سورة إبراهيم: ٣٣.

ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1].

ومن ذلك اختلاف الليل والنهار، ومافي معناه من التكوير والإيلاج والإغشاء والتقليب، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾[2]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[5] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[6]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾[7]، ووجه دلالة هذه الآيات تشير إليه آية المؤمنون: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾[8]، فإنها تفيد اختصاص الله ـ تعالى ـ بذلك، حيث لايقدر عليه غيره، كما أفادته اللام من قوله (وله)، وتقديم الجار والمجرور على متعلقه[9].

ومن ذلك أنها مسخرة من أجل الإنسان، مكيفة على مايلائمه،

---

(١) سورة يس: ٣٧ ـ ٤٠.

(٢) سورة يونس: ٦، ومعنى الاختلاف أنه إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، انظر تفسير الطبري: ٧/ ٨٦.

(٣) سورة الفرقان: ٦٢.

(٤) سورة الزمر: ٥.

(٥) سورة فاطر: ١٣.

(٦) سورة الأعراف: ٥٤ والرعد: ٣.

(٧) سورة النور: ٤٤.

(٨) سورة المؤمنون: ٨٠.

(٩) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٦/ ٣٤٣.

كما يظهر من عدة وجوه، منها:

* السكن في الليل، وطلب المعاش في النهار، كما دل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

يقول ابن القيم معلقا على هذه الآيات: (خص الله سبحانه النهار بذكر البصر؛ لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع؛ لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات، وخمود الحركات، وقوةِ سلطان السمع، وضعفِ سلطان البصر، والنهارُ بالعكس؛ فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع)[2].

وفي معنى الآيات السابقة قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[3].

يقول ابن رشد: (يريد أن الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات التي هٰهنا من حرارة الشمس، وذلك أنه لولا غيبة الشمس بالليل لهلكت الموجودات، التي جعل الله حياتها بالشمس، وهي الحيوان والنبات، فلما كان اللباس قد يقي من الحر، مع أنه سترة، وكان الليل يوجد فيه هذان المعنيان، سمّاه الله ـ تعالى ـ لباسا، وهذا من أبدع الاستعارة،

---

(١) سورة القصص: ٧١ ـ ٧٣، والسرمد: الدائم، انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص٢٣١.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/٢٠٨.

(٣) سورة النبأ: ١٠، ١١.

وفي الليل أيضا منفعة أخرى للحيوان، وهو أن نومه يكون مستغرقا، لما كان ذهاب الضوء الذي يحرك الحواس إلى ظاهر البدن، الذي هو اليقظة، ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾، أي مستغرقا من قِبل ظلمة الليل)[1].

ولوضوح دلالة هذه الآيات جاء التعجيب من حال الكفار معها، كما أفاده الاستفهام في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾[2]، وذلك أنها آية ملازمة لهم طوال حياتهم، تخطر ببالهم مرتين كل يوم[3].

* علم الحساب والمواقيت، الذي تتوقف عليه مصالح الناس، وذلك باعتبار جريان الشمس والقمر، كما نبه إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[5]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[6]، قال البيضاوي: (أي على أدوار مختلفة يُحسب بهما الأوقات، ويكونان عَلَمي الحُسبان، وهو مصدر حسَب بالفتح)[7].

وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[8].

---

(١) مناهج الأدلة: ١٠٠.
(٢) سورة النمل: ٨٦.
(٣) انظر التحرير والتنوير: ٢٠/ ٤٣.
(٤) سورة يونس: ٥.
(٥) سورة البقرة: ١٨٩.
(٦) سورة الأنعام: ٩٦.
(٧) انوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٣١٣.
(٨) سورة الإسراء: ١٢.

هـ ـ الظـــل.

نبه الله ـ تعالى ـ إلى كيفية مدّ الظل وقبضه في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ[2] سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[3].

وفي تصدير الآيتين بالاستفهام إثارة للاهتمام، بما ينبه على وجود دلالة ذات شأن في الآية.

وقد روى ابن جرير عن جماعة من السلف أن المراد بمدّ الظل في الآية الأولى: (مابين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس)[4].

وذكر الرازي أن حقيقة الظل أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهذا التوسط هو أعدل الطرفين، ولذلك وصفت به الجنة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[5]، [6].

وقال في معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾: (إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لايشاهد شيئا سوى الجسم واللون، ونقول: الظل ليس أمرًا ثالثا، ولايعرف به إلا إذا طلعت الشمس، ووقع ضوؤها على الجسم، زال ذلك الظل.. فلولا الشمس لما عرف الظل.. فلهذا قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾، أي خلقنا الظل أولاً، لما فيه من المنافع واللذات، ثم إنّا هدينا العقول

---

(١) سورة الفرقان: ٤٥، ٤٦.

(٢) أي يتراجع ويدور من جانب إلى جانب. انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ص٤١٦، والقرطين لابن مطرف: ١/٢٤٣.

(٣) سورة النحل: ٤٨.

(٤) التفسير: ١٨/١٩.

(٥) سورة الواقعة: ٣٠.

(٦) انظر التفسير الكبير: ٨٨/٢٤.

إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس، فكانت دليلاً على وجود هذه النعمة، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي أزلنا الظل لادفعة، بل يسيرًا يسيرًا)[1].

أما سجود الظلال في الآية الثانية، فقد فُسر بالخضوع والاستسلام، والانقياد لتدبير الله ـ تعالى ـ[2]، ونحوُها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾[3]، وفي هذا تتجلى دلالة التسخير والتدبير المتقدم ذكرها.

وذكر الرازي أيضا في وجه الاستدلال بالظل على وجود الله ـ تعالى ـ أن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء، وهو من الجائزات قطعا، لوجوده بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، فلابد له ضرورة من صانع قادر مدبر محسن يقدّر بالوجه النافع، وما ذاك إلا من يقدر على تحريك الأجرام العلوية، والأجسام الفلكية، على الوصف الأحسن والأكمل، وليس ذاك إلا لله ـ سبحانه وتعالى ـ[4].

وهذا كما نرى استدلال بالاختراع والعناية والإتقان والنظام والتسخير والتخصيص معًا.

وقد أورد الرازي على دلالة الظل على الربوبية اعتراضًا، بأن الظل إنما هو أمر عدمي، فكيف يصح كونه دليلاً؟ وردّ عليه بأن الظل ليس عدما محضا، بل هو أضواء مخلوطة بُظلَم، وقال: (والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني، وهو أمر وجودي)[5].

---

(١) التفسير الكبير: ٢٤/ ٨٨.

(٢) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ٤١٧، ٤١٨، وزاد المسير لابن الجوزي: ٤/ ٣١٩، ٤٥٣.

(٣) سورة الرعد: ١٥.

(٤) انظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): ٢٤/ ٨٩.

(٥) مفاتيح الغيب: ٢٤/ ٨٩.

ويمكن أن يردّ أيضًا بأن تهيئة أسباب الظل، وتيسير المصالح والمنافع المترتبة عليه، أمور وجودية تصحح الاستدلال به، كما هو شأن الاستدلال بالليل، مع كونه ظلمة محضة.

وقد نبه الله ـ تعالى ـ إلى دلالة الظل السابقة بقوله في معرِض الامتنان: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾[1].

وفي ختام الكلام على آيات السماء ومايتعلق بها أود أن أنبه إلى أمر مهم، وهو أن الاستدلال بهذه الآيات لايكفي فيه مجرد الدراسة النظرية في الكتب، والاطلاع على ماحوت من أوصاف وأشكال وهيئات، بل لابد من التأمل المباشر، والنظر البصري إلى السماء، وخصوصًا في الليل، فإن أكثر آياتهما إنما تظهر فيه، وقد حُرم أكثر الناس في هذا الزمن من مزاولة التفكر في السماء وآياتها بسبب حياة التمدن، حيث تحول كثرة أضواء المصابيح الكهربائية دون النظر إلى النجوم، ومن جرب النظر في السماء في ليلة ظلماء، وقابل بين مايراه من آياتها، ومايتلوه من آيات القرآن، فإنه سيرى تمام المطابقة بين الآيات المتلوة والآيات المشهودة، ولن يجد أي عناء في فهم دلالاتها وإدراك معانيها، ولامانع من الاستعانة في ذلك بالوسائل الحديثة، التي تمكن المشاهد من النظر إلى آفاق أبعد وأوسع، مما يكون له أثره في زيادة مجال التفكر والاعتبار، وإن كان القدر المطلوب والكافي للاستدلال والتفكر حاصلاً بدونها.

٢ ـ آيات الأرض:

لاحاجة إلى تكرار الكلام عن الأرض كأحد الأجرام السابحة في الفضاء، فقد مرّ مايغني عن ذلك عند الحديث عن السماء وآياتها، وإنما الحديث هنا عن الأرض كموطن للإنسان.

ومجال الاستدلال السمعي بالنسبة لآيات الأرض أضيق منه بالنسبة

---

(١) سورة النحل: ٨١.

للسماء، إذ الأرض في متناول الحواس، وآياتها قد تكون أقرب إلى الحس والشعور من آيات السماء، لما بينها وبين الإنسان من رباط الأمومة والمواطنة، فهي مسكنه المعد، وفراشه الممهد، بعد أن كان جزءًا منها، ومع ذلك فلابد أن تغيب عن بعض الناس جوانب من الأرض لم يطلعوا عليها، وقد تحوي أنواعا من الآيات في الحيوان والجماد، ومايسمّى بالظواهر الطبيعية، وغير ذلك مما يسمع كثير من الناس بوجوده، ويوقنون به من طريق التواتر، دون أن يقفوا عليه وينظروا إليه بأبصارهم، ومع ذلك فالمؤمنون منهم إذا علموا بشيء من ذلك سبحوا الخالق ـ جل وعلا ـ، وعظموه، وأثنوا عليه بما علموا من دلائل قدرته وعظمته، ولم يمنعهم من ذلك أنه إنما علم من طريق السمع.

والمقصود هنا ذكر مجمل ما جاء في القرآن من التنبيه إلى ظواهر العناية والتسخير، والإحكام والإتقان، في هذا الخلق العجيب.

أ ـ فمن ذلك تهيئة الأرض للسكنى، وإعدادها لتكون موطنا ملائما للإنسان، ويتجلى ذلك في أوصاف كثيرة، نبّه القرآن عليها بألفاظ متنوعه، وأساليب متعددة، وذلك ـ والله أعلم ـ لإثارة الانتباه، ولفت الأنظار لما تحمل من دلالة، فجاء ذكر فرش الأرض للإنسان في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[1]، وبمعناه جاء ذكر مهدها في عدة مواضع، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[2]، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ ﴾[3]، وكذلك بسطها، كما في قوله ـ تعالى ـ على لسان نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ ﴾[4]،

---

(١) سورة البقرة: ٢٢.
(٢) سورة طه: ٥٣ والزخرف: ١٠.
(٣) سورة النبأ: ٦.
(٤) سورة نوح: ١٩.

ومدّها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾[1]، وسطحُها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[2]، وتذليلها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[3]، ووضعها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾[4]، فهذه الأوصاف المتقاربة تنبه إلى دلالة العناية في تهيئة سطح الأرض للإنسان، من حيث جُعل مذللاً ممهدا كالفراش والبساط، وتنبه كذلك إلى دلالة الخلق، في كيفية صنع هذا السطح على أتم وصف، وخصوصًا آية الغاشية، حيث وُجه النظر إلى كيفية سطح الأرض.

وجاء كذلك التنبيه إلى وصف آخر يدل على العناية التامة، ألا وهو التثبيت والإرساء، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[5]؟ وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[6]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[7][8]، وهذه الرواسي التي جعلها الله ـ تعالى ـ أوتادًا للأرض أن تميد وتضطرب جاء ذكرها أيضًا في القرآن مرات متعددة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾[9]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَمِخَٰتٍ﴾[10]، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾[11]، والإرساء هنا،

---

(١) سورة ق: ٧.
(٢) سورة الغاشية: ٢٠.
(٣) سورة الملك: ١٥.
(٤) سورة الرحمن: ١٠.
(٥) سورة النمل: ٦١.
(٦) سورة غافر: ٦٤.
(٧) (أي: أن تتحرك بكم يمينا وشمالاً)، مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١٢٦/٢.
(٨) سورة لقمان: ١٠.
(٩) سورة النبأ: ٧.
(١٠) سورة المرسلات: ٢٧.
(١١) سورة النازعات: ٣٢.

وإن كان وصفًا للجبال، إلا أنها برسوّها تكون مثبّتة للأرض، مانعة لها بإذن الله ـ تعالى ـ من الميْد والتزلزل.

ومن شواهد العناية والتسخير في خلق الأرض: جعل السبل، الذي جاء ذكره في أكثر من موضع، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]، وفي كلام نوح لقومه فيما حكى الله ـ تعالى ـ عنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[2]، وكذلك في كلام موسى لفرعون وقومه فيما حكاه الله ـ تعالى ـ عنه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[3]، وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾[5]، وقد صرح في هذه الآيات بذكر حكمة جعل السبل، وهي الاهتداء، والاهتداء هنا يحتمل معنيين، أحدهما: اهتداء الناس إلى مقاصدهم في سيرهم في الأرض، والثاني: الاهتداء إلى حكمة الخالق بالنظر في خلق الأرض ومافيها من آيات[6].

ومن أوصاف الأرض التي تحمل دلالة العناية: ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾[7].

---

(١) سورة الزخرف: ١٠.
(٢) سورة نوح: ١٩، ٢٠.
(٣) سورة طه: ٥٣.
(٤) سورة الأنبياء: ٣١.
(٥) سورة النحل: ١٥، ١٦.
(٦) انظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب: ٧/ ٤٣٤.
(٧) سورة المرسلات: ٢٥، ٢٦. وكفات: اسم للشيء الذي يكفت فيه، أي يجمع ويضم فيه، انظر التحرير والتنوير: ٢٩/ ٤٣٢.

قال الفراء: (تكفتهم أحياء على ظهرها في بيوتهم ومنازلهم، وتكفتهم أمواتا في بطنها، أي تحفظهم وتحرزهم)[1].

ب ـ ومن الأوصاف التي تكررت كثيرًا في القرآن على أنها من الدلائل الكبرى على الربوبية والبعث معًا: إحياء الأرض بعد موتها، وجعلها صالحة للإنبات، وفتق السماء بالماء، وشق الأرض بأنواع الزرع والنبات، كما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ[2] كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[3]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[4]، مع قوله ـ تعالى ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[5]، فإن الفتق والشق في هاتين الآيتين بمعنى، على أرجح الأقوال في تفسير الآية الأولى[6]، وأليقها بالسياق، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾[7].

---

(١) معاني القرآن: ٣/ ٢٢٤.
(٢) أي الأجناس، انظر القرطين لابن مطرف: ٢/ ٨٨.
(٣) سورة يس: ٣٣ ـ ٣٦.
(٤) سورة الأنبياء: ٣٠.
(٥) سورة عبس: ٢٤ ـ ٣٢.
(٦) انظر تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): ٢٢/ ١٦٢، ١٦٣، وأضواء البيان للشنقيطي: ٤/ ٦١٣ ـ ٦١٥.
(٧) سورة الشعراء: ٧ ـ ٩.

وفي تقرير دلالة إحياء الأرض بالنبات على وجود الخالق ـ جل وعلا ـ، يقول القاسمي: (من أظهر البراهين على وجوده ـ تعالى ـ: الحياة على الأرض، إنْ نباتية أو حيوانية، فإن الحي لايتولد إلا من حي، وبه يُستدل على نفي التولد الذاتي، وهو زعْم تولد الحي من المادة، وذلك لأن المادة خالية من الحياة، ساكنة خاضعة للنظام الذي وضعه لها خالقها، ويستحيل أن تُولّد حياةً في ذاتها أو غيرها، لاسيما العقل الإنساني بجميع قُواه وغرائزه، فإنه لابد له من خالق عالم حكيم، إذ المواد لاتولّد عقلاً، ولاتستطيع أن تُخرج كائنا جهازيًا متصفًا بأوصاف مباينة لنظام المادة)[1].

وماذكره القاسمي قد أشار إليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[2].

وذِكرُ النبات والزرع آيةً عظيمة على الخالق ـ جل وعلا ـ في القرآن العظيم من الكثرة والتنوع بحيث يضيق المقام عن حصره، وإنما يجري التنبيه على أمثلة يسيرة.

ومن التنبيهات والإشارات القرآنية في هذا الصدد: لفت الانتباه إلى تنوع الثمار والألوان والأصناف الخارجة من الأرض، مع تجاورها وتماثلها في البيئة التي نشأت فيها، كما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ[3] يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾[4]، وقد ذكر الرازي في تفسيره أن تقرير دلالة هذه

---

(١) دلائل التوحيد: ٥٠.

(٢) سورة الروم: ١٩.

(٣) (والصنوان: النخلات يكون أصلهنّ واحد)، معاني القرآن للفراء: ٢/٥٨، ٥٩.

(٤) سورة الرعد: ٤.

الآية على وجود الفاعل المختار من وجهين:

الأول ـ اختلاف قطع من الأرض بالطبيعة والماهية مع تجاورها، ووقوعِها تحت تأثير متماثل من ظروف البيئة، والعوامل الجوية والفلكية، فلابد أن يكون هذا الاختلاف في الصفات بتقدير العليم القدير.

الثاني ـ أن القطعة الواحدة من الأرض تُسقى بماء واحد، فيكون تأثير الشمس فيها متساويًا، ثم إن تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبع والخاصية، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة الطباع والأفلاك للكل على السوية...، وهذا يدل دلالةً قطعية على أن الكل بتدبير فاعلٍ مختار[1]، ونحو دلالة هذه الآية ماجاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[2][3].

وقريب منه أيضا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ[4] دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[5] إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[6].

قال البيضاوي في تعليقه على آخر هذه الآية: (أي لآيات على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المفتنّة من أصل واحد، ونقْلَها من حال إلى حال، لايكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ماتقتضيه حكمتُه، مما يمكن من أحوالها،

---

(١) انظر مفاتيح الغيب: ٢٠/٦ ـ ٧، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ١/٣٨٢.

(٢) سورة النحل: ١٣.

(٣) انظر مفاتيح الغيب: ٢١/٤.

(٤) هي عذوق النخل، انظر القرطين لابن مطرف: ١/١٦٨.

(٥) أي: إدراكه ونضجه، المرجع السابق: ١/١٦٨.

(٦) سورة الأنعام: ٩٩ ونحوها في: ١٤١.

ولايعوقه عن فعله نِدٌّ يعارضه، أو ضدٌّ يعانده)[1].

ولاتقتصر دلالة التنوع والتلوّن هذه على النبات وحده، بل تشمل أيضا ماجاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

فإن قيل: إنما حصل هذا التنوع والاختلاف لاختلاف القوابل، وغير ذلك من الأسباب، فالجواب أن تلك الأسباب والقوابل هي جميعا من فعل الله ـ تعالى ـ، فهو سبحانه الذي أعد القوابل، وهو الذي أمد كل شيء بحسب ما أعده له[3].

جـ ـ ومن آيات الأرض: الرياح والسحاب والمطر، وهي من الآيات التي ثنّى القرآن ذكرها والتنبيه على دلالتها على الربوبية، وأومأ إلى ذلك من خلال صفات ووظائف لهذه الرياح، تدل على المقدّر المدبّر الحكيم، فمن ذلك ماجاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[4]، فوُصفت الرياح في هذه الآية بأنها مبشرات؛ لأنها علامة على المطر تُبشر به، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، وذلك بإنزال الغيث من السماء، ونحو ذلك قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[5]، وقد جاء هذا المعنى

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب: ٤/ ١٠٥.
(٢) سورة فاطر: ٢٧، ٢٨.
(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ١/ ٣٨٢.
(٤) سورة الروم: ٤٦.
(٥) سورة الأعراف: ٥٧.

بصيغة الاستفهام في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾[1]، كما بينت الآية وظيفةً أخرى للرياح، ألا وهي إجراء الفُلك وتسييرها، كما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾[2]، وفي هذا من النفع العظيم مالايخفى، ولذلك قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وذلك بأنواع التجارات التي تحملها هذه السفن[3].

ومن وظائف الرياح الدالة على أنها مسخرة مأمورة مدبرة: ماجاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[4]، وذلك أنها تقوم بعملية التلقيح، إما للسحاب فينزل المطر، وإما للنبات فينتج الثمر، والأول أليق بسياق الآية، ولامانع من دخول المعنيين في عموم لفظ (لواقح)، والله أعلم[5].

وهذا يجرنا إلى الحديث عن خلق المطر وإنزاله من السحاب،

---

(١) سورة النمل: ٦٣.

(٢) سورة الشورى: ٣٢، ٣٣.

(٣) لايؤثر على هذا السفن الحديثة التي تسير بالوقود، فإنها لم تظهر إلا حديثا، ومع ذلك فلم يُستغن عن الشراعية بالكلية، ثم إن المراد من الآية مجرد الاستدلال بآثار العناية، وذلك حاصل بالتأمل فيما مضى من الزمان، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة يس: ٤١، ٤٢] وروى ابن جرير في تفسيرها عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتدرون ماقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾؟ قلنا: لا، قال: هي السفن جُعلت بعد سفينة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ على مثلها، وذكر ابن كثير أن هذا التفسير هو قول جمع من مفسري السلف. انظر جامع البيان: ٢٣/ ١٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ١٣٠.

(٤) سورة الحجر: ٢٢.

(٥) انظر على سبيل المثال تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٨٩ مع حاشية الشهاب.

بل وخلق السحاب نفسه، فقد جاء تفصيله في القرآن في أكثر من آية، ممّا يدل على بالغ أهميته آيةً من آيات الربوبية، كما في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾[3].

يقول ابن تيمية: (وكذلك المطر معروف عند السلف والخلف بأن الله ـ تعالى ـ يخلقه من الهواء، ومن البخار المتصاعد، لكن خلقه للمطر من هذا كخلق الإنسان من نطفة، وخلقِه للشجر والزرع من الحب والنوى، فهذا معرفة بالمادة التي خُلق منها، ونفسُ المادة لاتوجب ماخُلق منها باتفاق العقلاء، بل لابد مما به يخلق تلك الصورة على ذلك الوجه، وهذا هو الدليل على القادر المختار الحكيم، الذي يخلق المطر على قدر معلوم وقت الحاجة إليه، والبلد الجرز يسوق إليه الماء من حيث أمطر، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾[4] . . . الآية، فالأرض الجرز لاتمطَر مايكفيها، كأرض مصر، لو أُمطِرت المطر المعتاد لم يكفها، فإنها أرضٌ إبليز[5]، وإن أُمطرت مطرًا كثيرا، مثل مطرِ شهرٍ، خربت المساكن، فكان من حكمة الباري ورحمته أن أمطر أرضًا بعيدةً، ثم ساق ذلك الماء إلى أرض مصر، فهذه الآيات يُستدل بها على علم الخالق، وقدرته، ومشيئته،

---

(١) (التزجية دفع الشيء لينساق)، المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص٢١٢.
(٢) أي القطر والمطر، انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٢/٦٧.
(٣) سورة النور: ٤٣، وانظر نحوها في سورة الروم: ٣٠.
(٤) سورة السجدة: ٢٧.
(٥) الإبليز: الطين الذي يخلّفه نهر النيل على وجه الأرض بعد ذهابه، وهو لفظ دخيل. انظر المعجم الوسيط: ١/٣. مادة (أبا).

وحكمته، وإثبات المادة التي خُلق منها المطر والشجر، والإنسان والحيوان، مما يدل على حكمته)[1].

٣ ـ الدواب.

وقد ذكرها الله ـ تعالى ـ في أكثر من موضع ضمن آيات الخلق العظيمة، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[2]، وبثُّ الدواب في الأرض قد جاء في غير موضع على أنه من دلائل الربوبية، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾[3]، والبثُّ في هذه الآيات إشارةٌ إلى إيجاد الله ـ تعالى ـ مالم يكن موجودًا، وإظهاره إياه[4].

وقد تنوع ذكر الدواب في القرآن، فتارة تُذكر مجملة كما سبق، وتارة تذكر أصنافٌ منها وأجناس، ويُنبه إلى مافيها من وجوه الدلالة على خالقها ـ جل وعلا ـ، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦﴾[5]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾[6]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٥/ ٤٤٣، ٤٤٤.

(٢) سورة الجاثية: ٣، ٤.

(٣) سورة لقمان: ١٠، ١١، وانظر سورة البقرة: ١٦٤، والشورى: ٢٩.

(٤) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٣٧.

(٥) سورة النحل: ٦٦، ونحوها في المؤمنون: ٢١، ٢٢.

(٦) سورة النحل: ٨٠.

مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[2]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ﴾[3].

والتنبيه في هذه الآيات جاء منصبًا على منافع هذه الدواب وتسخيرها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4]، وهذا لايكون إلا عن مريد مقدّر حكيم.

كما أن الدلالة حاصلة من طريق آخر غير المنافع، ألا وهو خلقها البديع المحكم المتقن، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾[5]، وجمالها وبهاؤها وزينتها، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾[6].

كما قد تأتي من طريق التنبيه إلى هداية هذه الدواب إلى أداء وظيفتها الكونية، في غاية من الدقة والانضباط، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ

---

(١) سورة غافر: ٧٩ ـ ٨١.
(٢) سورة النحل: ٥ ـ ٨.
(٣) سورة الأنعام: ١٤٢.
(٤) سورة الحج: ٣٦.
(٥) سورة الغاشية: ١٧.
(٦) سورة النحل: ٦. وانظر ما قاله سيد قطب عن دلالة الجمال والزينة في الكون، في مقومات التصور الإسلامي: ٣٣٨ ـ ٣٤٣.

﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾[2].

قال ابن القيم: (ولا تزدرينّ العبرة بالشيء الحقير من الذرّة والبعوض؛ فإن المعنى النفيس يُقتبس من الشيء الحقير، والازدراء بذلك ميراثٌ من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله ـ تعالى ـ في كتابه المثل بالذباب، والعنكبوت، والكلب، والحمار، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[3]، فما أغزر الحِكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها، وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته، فسل المعطّل[4]: من ألهمها هذه الحيل، والتلطّف في اقتناص صيدها الذي جُعل قوتَها، ومن جعل هذه الحيل فيها، بدل ماسلبها من القوة والقدرة، فأغناها ما أعطاها من الحيلة عمّا سلبها من القوة والقدرة، سوى اللطيف الخبير؟)[5].

---

(١) سورة النحل: ٦٨، ٦٩، وانظر ما قاله ابن القيم عن النّحلة في كتابه القيم «مفتاح دار السعادة»: ١/ ٢٤٨.

(٢) سورة الأعلى: ٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٦.

(٤) أي الملحد، الذي يعطّل الربوبيّة.

(٥) مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٤٤.

المبحث الثالث

دلالة دلائل النبوة على الربوبية

إن الاستدلال بدلائل النبوة على الربوبية قسيم الاستدلال بها على النبوات، وسأذكر هنا مايتعلق بأمر إثبات الربوبية، وأرجىء الاستدلال على النبوات إلى حينه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ودلائل النبوة تشمل عدة أمور أهمها: آيات الأنبياء التي يُظهرها الله ـ تعالى ـ على أيديهم، تصديقًا لهم في دعوى الرسالة، وتسمى عند علماء الكلام بالمعجزات، ويتبع ذلك حصول العاقبة والنَّصر للرسل وأتباعهم باطراد، مع قلّة العَدد والعُدد، كما تشمل أيضا كرامات الأولياء، التي يظهرها الله ـ تعالى ـ على أيدي أتباع الرسل إكرامًا لهم، وهي من جنس آيات الرسل، وتُعتبر امتدادًا لها، إذ هي شاهدة بصدقهم، حيث أُكرم بها أتباعهم، ويدخل فيها مايحصل لعباد الله المؤمنين من إجابة الدعوات، وكشف الكربات، وإغاثه اللهفات، وغيرُ ذلك من أنواع الكرامات.

ومع أن دلائل النبوة موجهة أصلاً لإثبات دعوى النبوة والرسالة، إلا أن لها دلالةً ـ دون شك ـ على وجود محدثها وموجدها، وذلك من جهتين:

أولاهما ـ أن منها ماهو خارق للعادة، لايقدر عليه إلا خالق السمٰوات والأرض، ومسيّرُ نظام العالم على تلك العادة المخروقة، فدل اقتران خرق تلك العادة مع دعوى الرسالة، على وجود رب قادرٍ على كل شيء، هو الذي أرسل هذا الرسول، وصدقه بهذه الآيات.

هذا فضلاً عن دلالتها على صدق الرسول نفسه، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ عند الكلام على النبوات.

يقول ابن الوزير: (وأما دلالة المعجزات فهي من أقوى الدلالات، وأوضح الآيات؛ لجمعها بين أمرين واضحين، لم يكن نزاع المبطلين إلا فيهما، أو في أحدهما، وهما: الحدوث الضروري، والمخالفة للطبائع والعادات... وعلى كل حال، فالنبوات، وآياتها البينة، ومعجزاتها الباهرة، وخوارقها الدامغة، أمر كبير، وبرهان منير، ماطرق العالم له معارض البتة، خصوصا مع قدمه وتواتره... وقد اعتضد ذلك بأمرين، أحدهما: استمرار نصر الأنبياء في عاقبة أمرهم، وإهلاك أعدائهم بالآيات الرائعة. وثانيهما: سلامتهم وأتباعِهم، ونجاتهم على الدوام من نزول العذاب عليهم، كما نزل على أعدائهم، ولو مرة واحدة)[1].

ثانيتهما ـ أن ماسوى الخوارق من دلائل النبوة، قد ثبت به صدق الرسول، الذي قد أخبر عن الرب الخالق العظيم، وعن صفات جلاله وكماله، بمالايدع مجالا للشك في كمال ربوبيته وعظمته، فضلاً عن وجوده أصلاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذه طريقة السلف من أئمة المسلمين، في الاستدلال على معرفة الصانع وحدوث العالم؛ لأنه إذا ثبتت نبوته بقيام المعجز [وجب تصديقه على ما أنبأهم عنه من الغيوب، ودعاهم إليه من وحدانية الله ـ تعالى ـ وصفاته وكلامه])[2].

---

(١) إيثار الحق على الخلق: ٥٤، ٥٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ٨/ ٣٥٢، ومابين [ ] هو من كلام الخطابي في كتابه «الغنية عن الكلام وأهله» وإنما أضاف إليه ابن تيمية أول الكلام.

وانظر شهادة عالم معاصر قد تمرس في الفلسفة والتصوف بأولوية هذه الطريقة، وهو الدكتور/ عبدالحليم محمود في كتابه «الإسلام والعقل»: ص١٣٠ ومابعدها وص١٧٧ ومابعدها، وانظر «المدخل إلى دراسة علم =

ويقول أيضًا: (الآيات التي يُستدل بها على ثبوت الصانع تدل المعجزة كدلالتها وأعظم، وإذا كانت دلالتها على صدق الرسول معلومة بالاضطرار. . . فكذلك من نازع في إثبات صانع يقلب العادات، ويغيّر العالم عن نظامه، فأظهر المدّعي للرسالة المعجز الدال على ذلك، عُلم بالضرورة ثبوت الصانع الذي يخرق العادات، ويغير العالم عن نطاق المعتاد.

وبالجملة، فانقلاب العصا حية أمر يدل نفسه على ثبوت صانع قدير عليم حكيم، أعظم من دلالة ما اعتيد من خلق الإنسان من نطفة، فإذا كان ذاك يدل بنفسه على إثبات الصانع فهذا أولى)[1].

ويقول ابن القيم: (وهذه الطريقة [يشير إلى الاستدلال على الخالق بآيات الأنبياء] من أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله. وارتباطُ أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتُها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله ـ سبحانه ـ آيات بينات)[2].

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن أنواع هذه الدلالة، وماورد في الشرع من التنبيه إليها، أود أن أنبه على أن الجانب السمعي في هذا الدليل إنما هو ناحية ثبوته، وهي حاصلة باستفاضة الأخبار وتواترها، أما نفس دلالته فلاشك أنها حسية عقلية، فمتى ثبت الخبر ثبتت هذه الدلالة، ولايضرّ توقفها على ثبوت الخبر، وسيأتي مزيد بيان لهذا ـ إن شاء الله تعالى ـ في فصل النبوة[3].

= الكلام» للدكتور حسن الشافعي: ص١٦٧.

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٤٣، ٤٤.

(٢) الصواعق المرسلة: ٣/ ١١٩٧.

(٣) انظر ص: ٥٠٢ ومابعدها.

كما أن ما اشتهر من جعلها أدلة حسية مغايرة للأدلة العقلية غير دقيق، فإن الحواس ماهي إلا أدوات يستخدمها العقل لاكتساب المعارف، فلا يقال: إنها دلائل غير عقلية فلا علاقة لها بهذا البحث.

وفيما يلي أشير إلى أمثلة لما ورد في القرآن من التنبيه على أنواع هذه الدلالة.

أولاً ـ آيات الأنبياء (المعجزات).

وأشهر آيات الأنبياء وأكثرها ذكرًا في القرآن: الآيات التي أظهرها الله ـ تعالى ـ على يد نبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهي خير مثال على مرادنا في هذا المبحث، حيث جابه بها موسى منكري الصانع، وهم فرعون وقومه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[1]، والآيات التسع هي: اليد، والعصا، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، ذكر هذا ابن كثير عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة، وقال: (وهذا القول ظاهر جلي، حسن قوي)[2].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي: هي حجج وأدلة تبصّر بصدق مايدعيه موسى، من أن الله ـ تعالى ـ هو رب العالمين، وأنه وحده الإله الحق المبين، وأنه أرسله إلى فرعون وقومه.

ووصْفه لها بالآيات البينات تأكيد على دلالتها على ناصبها

---

(١) سورة الإسراء: ١٠١، ١٠٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٤. وانظر تفسير ابن جرير: ١٥/ ١٧١، ١٧٢، حيث أورد روايات عن السلف في تحديد الآيات التسع، بينها اختلاف حول بعض الآيات.

وموجدها، وعلى صدق من ظهرت على يده؛ إذ الآيات هي العلامات التي يتوصل بها إلى معرفة غيرها، ووصفها بأنها بينات معناه أنها جليات واضحات ظاهرات الدلالة على مدلولها.

والمقصود: أن موسى ـ عليه السلام ـ احتج بالمعجزات على من أنكر وجود الخالق ـ جل وعلا ـ، بل وعلى من ادعى مقام الربوبية، كماهو واضح من قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإن القادر وحده على خرق العادة وإظهار هذه الآيات هو رب السموات والأرض وما بينهما، ومسيّر الكون على مشيئته وإرادته.

وهذه الحجة كما يقول ابن القيم (ليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصًا تقلها اليد ثعبانا عظيما يبتلع مايمر به، ثم يعود عصًا كما كانت، من أدل دليل على وجود الصانع، وحياته، وقدرته، وإرادته، وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد، وفلق البحر طرقًا، والماء قائم بينها كالحيطان، وفتق الجبل من موضعه، ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم، وضرب حجر مربع بعصًا، فتسيل منه اثنتا عشرة عينًا، تكفي أمة عظيمة، وكذلك سائر آيات الأنبياء... فكل طريق من هذه الطرق أصح وأقرب وأسهل وأوصل من طرق المتكلمين)[1].

ثانيا ـ حصول العاقبة للأنبياء وأتباعهم، والدائرة على أعدائهم.

قد مر ماذكره ابن الوزير[2] من أن دلالة آيات الأنبياء قد اعتضدت بأمرين:

---

(١) الصواعق المرسلة: ٣/ ١١٩٨.

(٢) ايثار الحق على الخلق: ص٥٤، ٥٥، وانظر البرهان القاطع لابن الوزير ايضًا: ص١١٦.

أحدهما ـ استمرار نصر الأنبياء في عاقبة أمرهم، وإهلاك أعدائهم.

ثانيهما ـ سلامتهم وأتباعِهم، ونجاتهم على الدوام من نزول العذاب عليهم، كما نزل على أعدائهم ولو مرة واحدة.

وقد كثرت الإشارة في القرآن إلى هذه الدلالة، بما يلفت النظر إلى أهميتها دليلاً من أدلة الربوبية، فضلاً عن دلالتها على النبوة، ومن أمثلة ذلك الآيات التالية:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ لفرعون: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2].

وقال ـ تعالى ـ بعد قصه قوم لوط: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[3]، وفي سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[4].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾[5].

وقال ـ تعالى ـ عن نوح: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[6].

---

(١) سورة التوبة: ٧٠.
(٢) سورة يونس: ٩٢.
(٣) سورة الحجر: ٧٥ ـ ٧٧.
(٤) سورة الصافات: ١٣٧، ١٣٨.
(٥) سورة الفرقان: ٤٠.
(٦) سورة العنكبوت: ١٥.

وقال ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾[2].

وقال ـ تعالى ـ عن قوم فرعون: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾[3]، وقال ـ تعالى ـ لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾[4].

وقال ـ تعالى ـ عن قوم لوط: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ (إلى قوله تعالى) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾[5]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾[6]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ۖ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾[7]، وقال ـ تعالى ـ بعد ذكر ماحل بكفار أهل الكتاب على أيدي المؤمنين: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾[8].

والآيات في هذا كثيرة جدًا، أضعاف ماذُكر[9]، تنص على أن ما

---

(١) سورة العنكبوت: ٢٤.
(٢) سورة الروم: ٩، ١٠، ونحوها في المؤمن: ٢١، ٨٢، وفاطر: ٤٤.
(٣) سورة الزخرف: ٥٦.
(٤) سورة إبراهيم: ٥.
(٥) سورة الذاريات: ٣٧ ـ ٤٦.
(٦) سورة القمر: ٤، ٥.
(٧) سورة القمر: ٥١.
(٨) سورة الحشر: ٢.
(٩) انظر مثلا المواضع التالية: آل عمران: ١٣٧، والأنعام: ٦، ١١، =

حل بكفار الأمم السابقة من العذاب هو من آيات الربوبية، مع كونه من أعظم علامات صدق الرسل.

يؤكد هذا مجيء لفظ « آية » مطلقا دون ذكر متعلقه، فلم يُقل: آية على كذا، بل أطلق ليشمل الدلالة على سائر أصول الإيمان، الألوهية والنبوة والبعث.

وقد نبهت الآيات إلى أن العلم بهذه الدلائل والعبر يكون من طريقين:

١ ـ خبري سمعي، مستند إلى ثبوت النقل، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[١]. فإن الاستفهام هنا إنكاري؛ لأنهم قد بلغتهم أخبارهم، وتواترت إليهم، وعلموها يقينا[٢].

٢ ـ حسي، وهو مايشاهد من آثار هذه الأمم المعذبة المهلَكة، كما نبه إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٣] وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾[٤]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٥]،

= والأعراف: ٤، ١٠٠ ـ ١٠٢، وهود: ١٠٠ ـ ١٠٣، ويوسف: ١٠٩، والنحل: ٣٦، ١١١ ـ ١١٢، والكهف: ٥٩، ومريم: ٧٤، ٩٨، وطه: ١٢٨، والحج: ٤٦، والمؤمنون: ٣٠، وسبأ: ١٩، ويس: ٣١، والصافات: ٧٣، والأحقاف: ٢٦، والقمر: ٦ ـ ١٤، والطلاق: ٨ ـ ١٠، والمرسلات: ١٦ ـ ١٨، وسورة الفيل.

(١) سورة إبراهيم: ٩.

(٢) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٣/١٩٦.

(٣) سورة إبراهيم: ٤٥.

(٤) سورة الرعد: ٤١.

(٥) سورة الأنبياء: ٤٤.

فقد ذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس أنه قال في تفسيرها: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض. وذكر عن الحسن البصري أنه قال: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. ثم قال ابن كثير: (والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة، والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين)[1].

وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾[2].

وكما في قوله ـ تعالى ـ عن ثمود: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[3].

وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾[4].

ثالثا ـ إجابة الدعوات وكشف الكربات.

وقد دل على هذا النوع من دلائل الربوبية قوله ـ تعالى ـ ضمن دلائل ربوبيته ووحدانيته: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[5].

ولاشك أن حصول إجابة دعوة المضطر، وكشفَ الكرب عنه، بعد رفع يديه إلى السماء، واستغاثته بخالقه، من أعظم الأدلة على وجود رب قادر، سميع بصير، رؤوف رحيم بعباده، فإن اقتران الإجابة بالدعاء،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٩٩، وانظر منه: ٢/ ٥٧١، ٥٧٢.

(٢) سورة الفرقان: ٤٠.

(٣) سورة النمل: ٥٢.

(٤) سورة العنكبوت: ٣٨.

(٥) سورة النمل: ٦٢، والآية دلت على الربوبية من جهة التضمن، وعلى الألوهية بالمطابقة.

وحصول عين المدعو به، دليل عقلي حسّي صريح على وجود السميع المجيب، ولايُعترض على ذلك بعدم حصول الإجابة في بعض الحالات؛ فإنه ليس من شرط صحة هذا الدليل اطّراد الإجابة في كل حالة استغاثة، فإنه قد توجد موانع تمنع من الإجابة في بعض الحالات، كما أن الحكمة الإلـٰهية قد تقتضي أحيانا عدم الإجابة العاجلة.

أما ما يزعمه عبّاد الأوثان من استجابتها لهم، فإنّه لايخرج عن إحدى ثلاث: إما أنهم يكْذبون، كما دل على ذلك صريح القرآن: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1]، وإما أن يكون ذلك استدراجا لهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾[2]، وكما قال النبي ـ ﷺ ـ: «إذا رأيت الله ـ تعالى ـ يعطي العباد مايسألون على معاصيهم إياه، فإنما ذلك استدراج»[3]، وإما أن يكون ذلك من تلاعب الشياطين بهم، وخداعهم لهم، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾[4]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[5].

---

(١) سورة الأحقاف: ٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ٤/ ١٤٥، عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ، وابن جرير في التفسير: ٧/ ١٩٥، وهذا لفظه، وقد حسّن إسناده الحافظ العراقي، كما في تخريج الإحياء: ٤/ ١٣٨، وصححه الألباني، كما في السلسلة الصحيحة: ١/ ٧٠٠، برقم (٤١٣).

(٤) سورة النساء: ١١٧، ١١٨. وقد فسر بعض السلف الإناث في الآية بما لاحياة فيه من الأوثان. انظر تفسير الطبري: ٥/ ٢٧٩.

(٥) سورة سبأ: ٤١، ٤٢.

والشياطين قد تتمثل للكفّار، من المشركين وأهل الكتاب، عند دعائهم من يعظمونهم من دون الله، وربما قضت لهم بعض حوائجهم، وخاطبتهم ببعض المغيبات، لكن لايبلغ ذلك إجابتهم فيما لايقدر عليه إلا الله بحال[1].

أما اليقين بحصول الإغاثه من الله ـ تعالى ـ للمضطرين، وبإجابته للداعين، فإنه يحصل أيضا من طريقين: طريق السمع، وطريق الحس والمشاهدة.

فمن حضر حادثة الإجابة كانت له حسّية مشاهدة، ومن أمثلة ذلك إنجاء الله ـ تعالى ـ لأنبيائه وأوليائه، كما قال ـ تعالى ـ عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[2]، وقال ـ تعالى ـ عنه أيضا: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾[3].

وكما قال ـ تعالى ـ عن إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[4]، وقد جاء في الصحيح أنه ـ عليه السلام ـ قال حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل[5].

وكما ثبت في صحيح البخاري[6] من حديث أنس، في قصة الأعرابي الذي دخل والنبي ﷺ يخطب، فطلب منه الاستسقاء، فدعا النبي ﷺ حتى مُطروا، ولم يكن في السماء سحاب قبل دعائه ـ عليه

---

(١) انظر إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم: ١/ ٣٣٦.

(٢) سورة الصافات: ٧٥.

(٣) سورة القمر: ١٠، ١١.

(٤) سورة العنكبوت: ٢٤.

(٥) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (إن الناس قد جمعوا لكم)، (٤/ ١٦٦٢)، حديث رقم (٤٢٨٧).

(٦) انظر كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، (١/ ٣٤٣)، حديث رقم (٩٦٧).

الصلاة والسلام ـ، فأجابه الله ـ تعالى ـ قبل أن ينزل يديه من دعائه. وهو حديث ثابت مشهور.

والأمثلة على هذا لاتعد ولاتحصى[1]، ولايزال يحصل من إجابة الله ـ تعالى ـ للدعوات، وتفريج الكربات، مايعلمه أهل الإيمان، ومن نوّر الله بصيرته، فهذا كلّه مشاهد محسوس لمن حضره وباشره، ومن لم يحضره فإنه يعلم به من طريق الخبر الصحيح، إما من طريق الوحي، كما في القرآن والسنّة، وإما من أخبار الثقات العدول، كما في كثير من كتب التواريخ والسير والتراجم.

(١) راجع مثلاً كتاب «المستغيثين بالله ـ تعالى ـ عند المهمّات والحاجات والمتضرعين إليه سبحانه بالرغبات والدعوات وما يسر الله الكريم لهم عن الإجابات والكرامات» للإمام أبي القاسم بن بشكوال.

obeikandl.com